جامعة الملك سعود
مركز الملك سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها
مجلة دراسات في تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها (HSCA)
ردمد (ورقي): ٩٢٧٠-١٦٥٨
ردمد (النشر الإلكتروني): ٩٨٣١-١٦٥٨

King Saud University
King Salman's Center For Historical
and Civilization Studies Of Arabian Peninsula
Journal of Studies in the History and Civilization of Arabia (HSCA)
ISSN: 1658-9270
EISSN: 1658-9831

مجلة دراسات في تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها، مج(٢)، ع٢، ص ص ١-٥٥، جامعة الملك سعود، الرياض (١٤٤٦هـ/ ٢٠٢٥م)
Journal of Studies in the History and Civilization of Arabia, Vol. 2, (2), pp 1-55 , King Saud University, Riyadh (1446H / 2025)

الحجاز في الرحلات الحجية الجزائرية

خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين/ السابع عشر والثامن عشر الميلاديين

أ.د. ناصر الدين سعيدوني
جامعة الجزائر الأولى، الجزائر
nsaidouni@yahoo.fr
(قُدِّم للنشر في ١٨/ ٠٣/ ١٤٤٦هـ، وقُبِل للنشر في ١٦/ ٠٦/ ١٤٤٦هـ)

الملخص:

يتناول البحث الرحلات الحجية الجزائرية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، ببعدها الروحي، وأثرها الثقافي، ودلالاتها الاجتماعية، ومؤشراتها الاقتصادية، باعتبارها مصادر تاريخية مهمة لرسم صورة عن الحجاز خلال فترة الحكم العثماني. كما يحاول البحث إبراز الرصيد المعرفي الذي توفره هذه الرحلات التي تُعد حلقة مهمة في سلسلة الرحلات الـمُشكّلة لتراث الرحلة الأندلسي والمغاربي، بحيث تكمل ما تضمنته من معلومات الرحلات المغاربية الأخرى ومصنفات المسالك والجغرافية الوصفية.

تتم مقاربة الموضوع من خلال خمسة محاور رئيسية، هي: التعريف برحلة الحج وانتظام ركب الحجاج الجزائريين؛ وعرض رصيد أهم الرحلات الحجية الجزائرية؛ ورسم صورة لأوضاع الحجاز السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال محتوى أهم الرحلات الحجية الجزائرية؛ وتقديم وصف طوبوغرافي وعمراني لمسلك الحجاج الجزائريين بالحجاز كما يُستخلص من هذه الرحلات؛ وأخيرا إبراز الروابط الروحية والتفاعل الثقافي بين الحجاز والجزائر.

من خلال هذه المحاور يسعى البحث إلى استغلال المضمون المعرفي والدلالات الأدبية والنفسية للرحلات الحجية الجزائرية في أبعادها الروحية والثقافية والاجتماعية والأنثروبولوجية والاقتصادية، كمظهر تراثي جزائري مميّز في الفضاء الشاسع للذاكرة التاريخية للمجتمعات العربية والإسلامية.

الكلمات المفتاحية: الرحلات الحجية، الجزائر، الحجاز، الفترة العثمانية، ركب الحج

Hijaz on Algerian pilgrimage narratives during 11-12th centuries AH / 17-18th centuries AD

Prof. Nasser Al-Din Saidouni
University of Algeria 1, Algeria
nsaidouni@yahoo.fr

(Received: 18/ 3/ 1446 H; Accepted for publication: 16/ 6/ 1446 H)

Abstract:

The paper addresses the content of Algerian pilgrimage narratives during the 11-12th centuries AH/17-18th centuries AD, as important historical sources. It explores their spiritual dimension, cultural impact, social connotations and economic indicators, with the aim to paint a picture of Hijaz during the Ottoman period. The research also seeks to highlight these narratives as a body of knowledge complementing other Maghribi and Andalusian pilgrimage narratives.

The subject is approached through five main themes, namely: the organization of Algerian pilgrimage trips; the presentation of the most important pilgrimage trips narratives; the drawing of a picture of the political, social and economic conditions of Hijaz through the information contained in these narratives; the sketching of a topographic and physical description of Hijaz in these narratives; and the highlighting of the spiritual links and cultural interactions between Hijaz and Algeria.

Through these themes, the research seeks to explore the literary and psychological aspects of Algerian pilgrimage narratives in their spiritual and cultural dimensions, social and anthropological connotations and economic indicators, as a distinct manifestation of Algerian heritage in the broad spectrum of Arab and Islamic written heritage.

Keywords: Pilgrimage narratives, Algeria, Hijaz, Ottoman Period, Pilgrimage trip.

المقدمة:

كان لأقطار المغرب العربي نصيب وافر من التراث المعرفي والرصيد التاريخي العربي الإسلامي، وقد كان للرحلات الحجية إسهام كبير فيه لما تضمنته من معلومات تاريخية مهمة، فكانت موضوع دراسات وبحوث عدّة ركز أغلبها على رحلات الأندلس والمغرب الأقصى لكثرتها وغنى مضامينها، في حين ظل حظ الجزائر من تلك الدراسات والبحوث محدودا وغير معروف، إذ ظلت أغلب الرحلات الحجية الجزائرية تفتقر إلى دراسة تحليلية معمقة ومعالجة تركيبية بنائية تسمح باستغلال مضمونها المعرفي ورصيدها الإثنوغرافي، رغم اهتمام العديد من الباحثين بها ومحاولتهم التعريف بأصحابها والإشارة إلى محتواها، من قبيل أبحاث أبو القاسم سعد الله حول الرحلات الحجازية الجزائرية خلال العهد العثماني، وخاصة ما تضمنته موسوعته "تاريخ الجزائر الثقافي" (سعد الله، ١٩٩٨، ج ٢، ص ٣١٩ – ٣٩٨)؛ وكذلك ما حققه محمد بن أبي شنب من الرحلات الجزائرية، وما كتبه أبو القاسم محمد الحفناوي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف، وما نشره محمد بكوشة ورابح بونار وخير الدين شترة ومحمد بن معمر وحاج صادوق وغيرهم من تحقيقات وبحوث. وسوف يثبت بعض هذه الأعمال كمصادر للبحث عند الرجوع إليها.

وقد دفعنا النقص الملاحظ في التحليل إلى محاولة التعريف بالإسهام الجزائري وعرض بعض مميزاته، خاصة ما يتصل منه بالبعد الروحي والأثر الثقافي والدلالات الاجتماعية والمؤشرات الاقتصادية، من منطلق أن دراسة هذه الرحلات دراسة تحليلية نقدية تمكن الباحث من تكوين صورة عن الحجاز في الفترة العثمانية، وخاصة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة/ السابع عشر والثامن العشر الميلاديين. لا زالت الرحلات الحجية الجزائرية خلال هذين القرنين إلى دراسة شاملة من قبيل ما أنجزته الباحثة عواطف نواب حول كتب الرحلات في المغرب الأقصى خلال هذين القرنين (نواب، ٢٠٠٨، ص ٣٩ – ٩٦)، بحيث يكون هذ العمل خطوة من أجل الإلمام بالرحلات الحجية المغاربية.

اعتمادًا على المعلومات المتضمنة في أهم الرحلات الحجية الجزائرية خلال هذين القرنين، سوف تركز إشكالية البحث على إظهار بعض جوانب الحياة السياسية والحضارية ورسم بعض ملامح الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية ببلاد الحجاز آنذاك، فضلا على إبراز بعض خصائصها الطوبوغرافية والطوبونيمية كما تُستشف من هذه الرحلات، مع إبراز العلاقة الوثيقة بين البلاد الجزائرية والبلاد المغاربية عموما ببلاد الحجاز والتي كانت رحلة الحج فيها بمثابة قناة تواصل وتفاعل بين فضاءين بعيدين عن بعضهما جغرافيا، لكنهما كانا مرتبطين ارتباطا روحيا وحضاريا متينا.

إن تلمس أوضاع الحجاز اعتمادا على الرصيد المعرفي الذي توفره الرحلات الجزائرية يمكّن من استكمال المعلومات المتضمنة في الرحلات المغاربية الأخرى، فهذا الرصيد يشكل في حد ذاته إضافة مثرية ويسمح بمقاربة مستجدة للمواصفات الطوبوغرافية والحياة الاجتماعية والاقتصادية، كما يُبرز الترابط الروحي والتواصل المعرفي بين الجزائر وأرض الحرمين الشريفين. وهذا ما نحاول معالجته من خلال المباحث الخمسة التالية، قبل استخلاص استنتاجات في الموضوع ضمن خاتمة البحث:

أولًا: رحلة الحج وانتظام ركب الحجاج الجزائريين.

ثانيًا: رصيد الرحلات الحجية الجزائرية والتعريف بأهمها.

ثالثًا: أوضاع الحجاز السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الرصيد المعرفي للرحلات الحجية الجزائرية.

رابعًا: الوصف الطوبوغرافي والعمراني لمسلك الحجاج الجزائريين بالحجاز حسب الرحلات الحجية الجزائرية.

خامسًا: الروابط الروحية والتفاعل الثقافي بين الحجاز والجزائر من خلال الرحلات الحجية الجزائرية.

أولا: رحلة الحج الجزائرية وانتظام ركب الحجاج الجزائريين

تشكل رحلة الحج أحد مظاهر التواصل البشري والترابط الروحي والتفاعل الثقافي بين بلاد الحرمين الشريفين وأقطار المغرب العربي، ومنها البلاد الجزائرية؛ فبعد أن كانت رحلة الحج في الفترات الإسلامية السابقة للعهد العثماني تندرج ضمن مسعى أداء فريضة الحج وزيارة الحرمين الشريفين، تنتقل أثناءها جموع الحجاج المغاربة، ومنهم الجزائريون، برا وبحرا للحجاز، بتشجيع ومبادرة من الحكام المحليين وبرعاية من المجتمعات الأهلية، بدأت منذ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي تنتظم بفعل مبادرات شخصية[1] (الماجري، ٢٠١٣، ص٦٢٧ – ٦٢٨؛ ماكامان، ٢٠١٤، ص١٣٣)، في شكل قوافل تتوفر فيها شروط السفر والأمن، خاصة في عهد الحفصيين والزيانيين والمرينيين، ولم تلبث أن اتخذت رحلة الحج شكل ركب منظم لجموع الحجاج، وغدت مع مرور الوقت تقليدا سنويا متبعا في مختلف مناطق بلاد المغرب العربي، فعُرفت بركب حجيج المنطقة التي تخرج منها، فهناك ركب الحج الفاسي، والمراكشي، والسجلماسي (تافلالت)، والدرعي، والشنقيطي، والتونسي، والجزائري (ماكامان، ٢٠١٤، ص ١٣٣؛ عمالك، ص ٦٣ – ٦٥).

وقد حظي ركب الحجاج الجزائريين باهتمام الحكام العثمانيين (البايلربايات ومن بعدهم الباشوات)، قبل أن يوليه الدايات[2] اهتماما ورعاية خاصة بعد استقرار سلطتهم في القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر الميلادي، إذ وجدوا في تنظيم الركب والإشراف

(١) يُرجح أن أول من وضع أسس ركب الحج بالمغرب العربي هو أبو محمد صالح الماجري دفين آسفي (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م) لمساعدة الحجاج المغاربة في رحلتهم الحجية، وتولى أبناؤه وحفدته الإشراف على أمور الركب ومنهم ابنه عبد العزيز الذي أقام بمصر للاعتناء بأمور الركب. وحسبما يُفهم من سياق الرحلات فإن ركاب الحج كانت تتسع أو تتقلص حسب الظروف، فالركب القسنطيني الذي كانت تشرف عليه عائلة الفكون أصبح جزءًا من الركب الرسمي الجزائري، كما أن الركب السجلماسي انفصل عنه الركب الناصري الدرعي (سنة ١٠٧٠ هـ/ ١٦٥٩ م).

(٢) البايلربايات: لقب حكام الجزائر العثمانية في الفترة الأولى من الحكم العثماني (١٥١٨ – ١٥٨٧م)، ومن بعدهم حمل حكام الجزائر العثمانية لقب "الباشوات (١٥٨٨–١٦٥٩م)، ثم خلفهم الآغوات (١٦٥٩– ١٦٧١م)، وأخيرًا الدايات (١٦٧١ – ١٨٣٠م).

عليه ما يؤكد شرعيتهم وصلتهم بالسكان، ويعمّق تواصل الجزائر مع الأقطار العربية الأخرى الخاضعة للسلطنة العثمانية.

كان ركب الحج الجزائري يتبع طريق البحر من الجزائر إلى الإسكندرية أو المسلك البري عبر مناطق الشرق الجزائري (الهضاب العليا والزيبان) نحو الجريد[1] (الجنوب التونسي)، ومن ثم يساير ساحل طرابلس الغرب وبرقة[2] وصولا إلى الإسكندرية التي عادة ما يجتمع فيها الحجاج الجزائريون القادمون برا وبحرا، فيدخلونها من باب السدرة، ويحطون رحالهم بزاوية أبي محمد صالح وجوارها (سعيدوني، ٢٠٠٨، ص١٦٦)، ومنها يتوجهون إلى القاهرة، وينضمون إلى الركب المصري المكلف بالمحمل مع غيرهم من حجاج المغرب الأقصى وتونس وطرابلس وفزّان،[3] مع محافظتهم على تنظيم خاص بهم أسوة بأفواج الحجيج الأخرى (سليم، ١٩٩٣، ص ٨٨ – ١٠٦).[4]

وكان الإعلان عن قافلة الحجيج الجزائري التي تؤلف ركب الحج الجزائري يتم أشهرا عديدة قبل انطلاق الركب، فينادي المنادون للسفر للحج في القرى والمدن، ليجتمع الراغبون في الحج (Hadj-Sadok, 1951, p 340). وهذا ما يؤكده ما ذكر الرحالة الورثلاني من أن زاويته استقبلت ثلاثمائة حاج من منطقة زواوة (القبائل) قاصدين التوجه إلى تونس

(١) الجريد: منطقة تقع جنوب غرب القطر التونسي، تُعرف بواحات النخيل، تنتظم حول شط الجريد، وهو سبخة تمتد على مسافة ١٢٠ كلم من الشرق إلى الغرب في الصحراء التونسية.

(٢) طرابلس الغرب نسبة إلى مدينة طرابلس وهي التسمية القديمة للغرب الليبي حاليا، أما برقة فهي التسمية القديمة للمنطقة الشرقية لليبيا (عاصمتها بنغازي).

(٣) فزّان هي المنطقة الجنوبية الغربية للقطر الليبي، كل أراضيها صحراء تتخللها جبال صخرية قاحلة، عاصمتها مدينة سبها.

(٤) ظل ركب الحج الجزائري تنظيما قائما بذاته بعد أن أولاه حكام الجزائر عنايتهم، ووفروا له إمكانية السفر برا وبحرا إلى مصر، وحمّلوه صرة الحرمين وهدايا الأشراف والأعطيات الموجهة للعلماء والفقراء في القرن الحادي عشر والثاني عشر للهجرة/ السابع عشر والثامن عشر الميلاديين. للتعرف بصفة إجمالية على المحمل وطريقه وإمارة الحج وواجبات ووظائف أمير الحج وأمور الصرة.

للسفر منها بحرا أو السير مع الركب برا تحت رئاسة شيخ الركب سيدي محمد المسعودي بن الموهوب (بوسعيد، ٢٠٢٢، ص٨٣-٨٤)[١] من مدوكال بمنطقة الحضنة (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٥).

أما في مدينة الجزائر، مركز الحكم، فكانت جموع الحجاج تنطلق عادة أشهرا قبل بداية موسم الحج، فقد ذكر الفرنسي سيور دو روكفيل (Sieur de Rocqueville) الذي كان أسيرا بالجزائر، والذي صدرت مذكراته أول مرة عام ١٠٨٦هـ/ ١٦٧٥م)، أن ركب الحج الجزائري في القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر الميلادي كان يضم ١٥,٠٠٠ حاج و٨٠٠ جمل، ويتولى أمره أمير الركب الذي يحف به ٢٠٠ حاج من الموظفين الأتراك والأشراف والأعيان الذين كانوا يركبون الخيل (Rocqueville, 1775, p 56-57).

ولا شك في أن هذا العدد الكبير من الحجاج والجمال تشكله قوافل الحجاج القادمة من الجهات الداخلية والأقاليم الجنوبية إلى مدينة الجزائر التي ينطلق منها الركب، فبعض المصادر تؤكد أن عدد ركب الحج المنطلق من مدينة الجزائر لا يتجاوز مائتي حاج (Vallière, 1781, p 28)، وإنما يزداد هذا العدد بالتحاق الحجاج القادمين من تلمسان وقسنطينة وبلاد القبائل وإقليم الزيبان.[٢]

وقد تزايدت أهمية الركب وتأكدت مكانة أميره بفعل ارتفاع عوائد أوقاف الحرمين الشريفين بالمدن الجزائرية (سعيدوني، ٢٠١٣، ص١٧٥ - ١٨٢؛ Vallière, 1781, p31)،

(١) لا يُعرف الكثير عن سيرته، وهو من بلدة مدوكال من منطقة الحضنة وسط شرق القطر الجزائري، كان أمير ركب الحج في النصف الثاني من القرن ١٢هـ/ ١٨م، ينتمي إلى أسرة آل المسعود (المسعودي)، وهو بيت اعتاد إمارة الركب الجزائري في العهد العثماني على غرار آل الفكون، وقد ذكرهم أبو سالم العياشي في رحلته (١٠٧٢هـ/ ١٦٦٢م).

(٢) تلمسان: من أهم مدن شمال غرب القطر الجزائري، كان لها دور حضاري بارز في العهود الإسلامية؛ قسنطينة: حاضرة الشرق الجزائري ومركزه الحضاري والروحي؛ بلاد القبائل: أو بلاد زواوة تقع شرق مدينة الجزائر في منطقة جرجرة الجبلية وتمتد شرقا إلى ما وراء وادي الصومام؛ الزيبان: منطقة تقع شمال الصحراء الجزائرية الشرقية، اشتهر بواحات النخيل وإنتاجها من التمور، أهمها مدنها مدينة بسكرة.

وتحول ما يُعرف بـ"الصرة" إلى وسيلة تواصل رسمي بين الجزائر والحرمين الشريفين (الزهار، ١٩٧٤، ص١٤٤؛ سعد الله، ٢٠٠٩، ص٣٧؛ Saidouni, 2007, p174-179)،[1] وهذا ما أضفى على أمير الركب مكانة الموظف السامي، فهو يحمل معه خطابا رسميا من باشا الجزائر (الداي) يحدد مهامه ويؤكد صلاحياته ويخول له القيام بمهمته في الحجاز.[2] وقد استمر هذا التقليد ساريا حتى الاحتلال الفرنسي للجزائر (١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م) الذي وضع حدا له، وسعى لإلغاء رحلة الحج، قبل أن يوقفها بحجة المحافظة على الأمن، ووجب انتظار بداية القرن الرابع عشر الهجري/ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ليُسمح مجددا بأداء أعداد محدودة من الحجاج الجزائريين (١٢٥٣ حاجا جزائريا) لفريضة الحج في ١٣٠٩-١٣١٠هـ/ ١٨٩٣ - ١٨٩٤م) (ريزفان، ١٩٩٣م، ص٢١). هذا ولم تتوقف عراقيل الإدارة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر بهدف قطع صلة الجزائريين بالحرمين من خلال تحديد

(١) حرص أمير ركب الحج الجزائري على حمل الصرة الخاصة بأوقاف الحرمين الشريفين بالجزائر، وكان ذلك تقليدا مرتبطا بالمحمل الرسمي على غرار المحمل الشامي والمصري، وهي في أساسها أعطيات للأشراف والعلماء والمجاورين، وقد تُصرف منها مبالغ لشراء رضا البدو لتأمين الطريق، لكنها من الراجح أنها لا ترقى إلى مستوى الصرة السلطانية التي يتكفل بها أمين الصرة بإستانبول والتي اكتست مظاهر رسمية وكانت مناسبة لاحتفالات شعبية، بينما ظلت الصرة إجراء رسميا يعتمد أساسا هدايا الحرمين المخصصة لبيت المال أو التي تعود إلى أوقاف الحرمين، يُكلف بها أمير الركب المعروف بأمين بيت المال (بيت المالجي).

(٢) جرت العادة أن يُختار امير ركب الحج الجزائري من بين الموظفين المهمين وأن يُزوّد بخطاب رسمي يحدد صلاحياته ويؤكد مكانته ويخول له تمثيل باشا الجزائر في الحجاز ويعرف عادة بأمين بيت المال (بيت المالجي).

ويتضمن الأرشيف الجزائري الذي يعود إلى العهد العثماني العديد من خطابات توكيل لمن كلف بإمارة الركب، نثبت هنا على سبيل المثال نص أحد التوكيلات مترجما من التركية إلى العربية: "لقد تم تحرير هذا الكتاب حسب القانون المعمول به في الأوجاق (ديوان الجزائر) بتاريخ سنة ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٥م لأداء فريضة الحج وزيارة بيت الله الحرام وروضة حضرة سيد الأنام صلى الله عليه وسلّم حبا في زيارة الحرمين الشريفين... فالذين يعودون إلى الجزائر يتسلمون ما تركوا لدى بيت المال والذين يتوفون توصل وصيتهم لورثتهم، ويمنع منعا باتا على أي شخص التدخل في شأن من شؤونه أو التعرض له في عمله بمقتضى الأمر الوارد فيها.": الأرشيف الوطني الجزائري، الوثائق العثمانية، ميكروفيلم رقم MI 15، شريط (bobine) ٥٣ / ٤٣٣ (الوثيقة بإمضاء حسن باشا والي محروسة جزائر غرب).

أعدادهم، فلم يتمكن من أداء الحج سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٩م سوى ٢٠٠ جزائري (ريزفان، ١٩٩٣، ص٢١). على أن هذه الجهود لم تنجح في التأثير على عمق صلات الجزائريين بإخوانهم بالمشرق، ولا سيما بالحجاز، فكانوا يحرصون على أداء الفريضة رغم الظروف القاسية جدا التي كانت تواجههم.

ثانيا: رصيد الرحلات الحجية الجزائرية والتعريف بأهمها

سمح ركب الحج الجزائري للعديد من الجزائريين بأداء فريضة الحج خلال العهد العثماني، منهم الموظفون الرسميون والأعيان وذوو المكانة الاجتماعية، وبعضهم من ذوي المنزلة العلمية والأدبية، فضلا عن كثير من العامة. وقد حرص بعض الحجاج والفقهاء والكتاب والشعراء على تسجيل ما لاحظوه في رحلاتهم الحجية، وقد أمكن لنا رصد حوالي خمسة وعشرين رحلة حجية جزائرية تشمل فترة تمتد من أواسط القرن الحادي عشر إلى منتصف القرن الثالث عشر للهجرة/ القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر الميلاديين، ويعود أغلبها إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة/ السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، حسبما هو مثبت في الجدول التالي (سعد الله، ١٩٩٨، ص٣٧٦- ٣٩٨؛ سعيدوني، ٢٠١٦، ص٧-٤٤؛ سعيدوني، ٢٠١٣ب، ص٧٥٠؛ الحفناوي،١٩٨٢، ص١٢٩ – ١٤٧؛ شترة، ٢٠١٥، ص ص٢٦٢ – ٢٦٣؛ ابن سودة، ١٩٦٠، ص١٣ -٤٣):

جدول بالرحلات الحجية الجزائرية في الفترة العثمانية

(ق. ١١ – ١٢ – ١٣ للهجرة/ ١٧ – ١٨ – ١٩ م):

تاريخ وفاة صاحب الرحلة	صاحب الرحلة	عنوان الرحلة	ملاحظة عن الرحلة
١٠٤١هـ/ ١٦٣١م	شهاب الدين أبو العباس المقري	رحلة إلى المغرب والمشرق	في شكل مراسلات وتقاييد
١٠٤٢ هـ/ ١٦٣٢م	محمد بن عبد الكريم بن امحمّد التمنطيطي التواتي	تحفة الحجاز في معالم أرض الحجاز	مقدمتها في فضائل الحج وأدب المسافر، ضمنها المزارات ومشاهد الطريق
بعد ١٠٧٤هـ/ ١٦٦٣م	عاشور بن موسى القسنطيني	رحلة منظومة	جاور وتوفي بالحجاز بعد

	(المعروف بالفُكيرين)	تناقلها طلبته	١٠٧٤ هـ
١٠٨٠ هـ/ ١٦٦٩م	أبو مهدي عيسى بن محمد الثعالبي	كنز الرواية	ضمن مجموع درر الجمان، جاور وتوفي بالحجاز
بعد ١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م	أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني	رحلة منظومة تعرف بالعقيقة	قصيدة من الشعر الملحون وضعها في ٣٠٣ بيت
بعد ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م	محمد بن التريكي التلمساني	رحلة منظومة	وضعها بالشعر الملحون، وهي مفقودة. جاور مؤلفها بالحرمين
١١٣٩ هـ/ ١٧٢٦م	أبو العباس أحمد بن بلقاسم الساسي البوني	الروضة الشهية في الرحلة الحجازية	غير مكتملة، نصها مفقود
بعد ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م	محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني	رحلة حجية منظومة	قصيدة همزية كتبها عام ١١٥٢ هـ، بدأها: أزمع السير إذا دهت أدواء** لشفيع الأنام فهو الدواء جاور مؤلفها بالحرمين.
بعد ١١٦٣هـ/ ١٧٥٠م	عبد الرحمن بن محمد بن خرّوب المجاجي	رحلة حجية منظومة	منظومة فصيحة (١١٦٣هـ/ ١٧٥٠ م)، ذكر فيها مراحل الطريق من مجاجة (الجزائر) إلى مكة، مطلعها: نشق الفيافي فدفداً بعد فدْفد**جبالا وأوعارا وأرضا وطية.
١١٧٩ هـ/ ١٧٦٥ م	محمد بن قدور بن حواء المستغانمي	سبيكة العقيان	رحلة منظومة تناول فيها رحلته إلى الحجاز
بعد ١١٩٠ هـ/ ١٧٦٨م	أبو عبد الله محمد بن مسايب التلمساني	يا الورشان أقصد مكة	رحلة منظومة بالشعر الملحون في وصف مراحل الطريق ومشاهد الحجاز
١١٩٣ هـ/ ١٧٧٩ م	الحسين بن محمد السعيد الورثلاني	نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار	رحلة مكتملة، تعتبر أهم رحلة جزائرية في العهد العثماني

١١٩٤ هـ/ ١٧٨٠ م	عبد القادر بن محمد بن مبارك الراشدي القسنطيني	رحلة حجية	مفقودة
١١٩٩ هـ/ ١٧٨٤ م	مولاي محمد هاشم الشريف التواتي	رحلة حجية	رحلة كُتبت عام ١١١٣هـ/ ١٧٠٢م
نحو ١٢٢٠ هـ/ ١٧٨٥ م	عبد الرزاق بن محمد بن محمد بن حمادوش الجزائري	لسان المقال في النبإ عن الحسب والنسب والحال	ضاعت ولم يبق منها سوى الجزء المتعلق بالجزائر والمغرب الأقصى (١١٥٦ – ١١٦١هـ/ ١٧٤٣ – ١٧٤٨ م).
بعد ١٢٠٥ هـ/ ١٧٩١ م	أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمار الجزائري	نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب.	لم يصلنا منها سوى مقدمتها (طبعت في ٢٥٤ ص)
١٢١٥ هـ/ ١٨٠٠ م	محمد المصطفى بن عبد الله بن زرقة الدحاوي	الرحلة القمرية في السيرة المحمدية.	رحلة حجية تناول فيها كذلك فتح مدينة وهران.
توفي نحو ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م– بدأ رحلته عام ١١٨٩ هـ/ ١٧٧٦م	عبد الرحمن بن إدريس بن عمر التنيلاني	رحلة حجازية	رحلة حجازية عبر الصحراء (نحو ١١٨٩ هـ/ ١٧٧٦ م). توفي المؤلف عند رجوعه من الحج في واحة سيوة (حوالي ١٢٣٤ هـ/ ١٨١٩ م)
لا يعرف تاريخ وفاته	عبد الله أحمد الفلاني (التواتي)	رحلة حجية	سافر إلى الحج مع شيخه عبد الرحمن بن عمر التنيلاني، كتب رحلته الحجية في شكل مذكرات يومية مختصرة
توفي في ١٢٧٨ هـ/ ١٨٢٣م – بدأ رحلته إلى المشرق عام ١٢٠٤ هـ/ ١٧٩٠ م	محمد بن أحمد بن عبد القادر المعروف بأبي راس الناصري المعسكري	في تعداد رحلتي عدتي ورحلتي	لم يصلنا منها سوى الجزء الذي ضمنه كتابه في سيرة حياته: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل الله ونعمته

هذا ويُستنتج من هذا الجدول أن الرحلات الحجية الجزائرية محل الدراسة تتميز باختلاف أسلوب كتابتها بين نثر ونظم وطريقة عرضها في شكل تقاييد وانطباعات شخصية، فضلا على أن الكثير منها تعرض للضياع كليا أو جزئيا، إلا أن ما بقي منها يظل

نظرا للمعلومات التي يتضمنها، مصدرا مهما لاستكمال المعطيات التاريخية المتوفرة عن أوجه الحياة بالحجاز وتلمس مدى عمق العلاقة بين القطر الجزائري والحرمين الشريفين، مما يسمح للدارسين برسم صورة أكثر اكتمالا عن أوضاع الحجاز في العهد العثماني.

وحتى نستفيد من المضمون المعرفي لهذه الرحلات في البحث، تحليلا واستقراءً، بهدف استخلاص دلالاتها المتعلقة بأوضاع الحجاز، فإننا آثرنا التركيز على التعريف بعيّنات منها، وهي:

١. رحلة شهاب الدين أبي العباس محمد بن محمد المقري التلمساني (ت. ١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م):

وُلد بتلمسان (٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨م) ونشأ بها، عُرف بمعارفه الفقهية واللغوية، وانتقل إلى المغرب الأقصى عام ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م، واستقر بفاس، ثم مراكش، واتصل بالسلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، وتولى الوظيفة الديني لخلفه زيدان السعدي. وقد اضطرته الظروف السياسية إلى مغادرة المغرب الأقصى (١٠٢٧هـ/ ١٦١٧م)، فتحول إلى الجزائر ومنها إلى تونس فالإسكندرية، ليستقر به المقام بالقاهرة حيث التحق بجماعة علماء الأزهر (١٠٢٨هـ/ ١٦١٨م) (سعد الله، ١٩٩٨، ج٢، ص٣٤٠ – ٣٤٢، ٣٧٣ – ٣٧٦؛ سعيدوني، ٢٠١٣ ب، ص.٣٥٨ – ٣٦٧؛ عنان، ١٩٧٠، ص ٣٧٣ – ٣٨٧).

وقد ذكر المقري أسفاره إلى الحجاز حيث جاور هناك لبعض الوقت، بقوله: "بعد الحج والعمرة عدت إلى مصر وذلك في محرم ١٠٢٩ [١٦١٩ م]... وتكررت منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة فدخلت لهذا التاريخ الذي هو عام تسع وثلاثون وألف مكة خمس مرات وحصلت لي بالمجاورة[1] فيها المرات" (المقري، ٢٠٠٤ أ، ص١٣ – ١٤).

أما رحلته الحجية التي تندرج ضمن موضوع البحث فعنوانها "رحلة إلى المغرب والمشرق"، وهي مجموعة تقاييد شخصية ورسائل خاصة ومعلومات أدبية تتعلق بأسفاره

(١) المجاور هو الذي يأتي إلى الحرمين ليعبد الله تعالى ويظفر بالصلاة فيهما، فهو ضيف بيت الله "المجاور له" بقصد المقام دون قصد الاعتكاف، لأن الاعتكاف غالبا يتقيد بمدة وشرائط بخلاف مطلق الإقامة.

ومراسلاته وعلاقاته بعلماء وحكام تواصل معهم، وخاصة منهم أمراء مكة وفقهاء الحرمين الشريفين، وهذا ما يضفي على رحلته أهمية في رصد الحياة الثقافية والعلاقات العلمية في الحجاز في القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر الميلادي، وقد ظلت مجهولة إلى أن تمكنت المكتبة الوطنية الجزائرية في فترة متأخرة (١٩٩٣ م) من الحصول على نسخة منها كانت في ملكية المستشرق الفرنسي جورج دولفان. (المقري، ٢٠٠٤ ب، ص٢٦١)

٢. رحلة أبي عبد الله محمد بن مسايب التلمساني (ت. حوالي ١١٩٠ هـ/ ١٧٦٨ م):

وُلد بتلمسان في عائلة حضرية ذات أصول أندلسية. اكتسب في صغره ثقافة عامة، وامتهن الحياكة ونسج الزرابي، ومال إلى تذوق الفن والإعجاب بالجمال، وعُرف بنظمه القصائد الغزلية. وقد اضطر إلى مغادرة موطنه تلمسان بعد أن تشبب بزوجة القائد التركي حاكم تلمسان، واستجار بأشراف عين الحوت، ومنها تحول إلى مكناس بالمغرب، قبل أن يتمكن من العودة إلى تلمسان بعد أن عفا عنه القائد التركي بوساطة من أخواله (سعيدوني، ٢٠١٣ ب، ص ٤٣٨ – ٤٤٥؛ Hamidou, 1936, p 1008-1046؛ Bencheneb, 1900, p 261-282).

ومع تقدمه في السن، تحول من حياة اللهو والاستمتاع بالحياة إلى عيشة الزهد والتصوف، فنظم قصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلّم، مبديا فيها توبته وراجيا من الله العفو والمغفرة، منها قصيدته المشهورة "يا أهل الله أغيثوا الملهوف"، وقد بلغ عدد أبيات ما نظمه في حياته ٣٠٣٤ بيتا (ابن مسايب، ١٩٨٩، ص٩٠ – ٩٨). لكن ما أبقى ذكره حيّا بين ناظمي الرحلات الحجازية هو وصفه لرحلته الحجية (حوالي ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م) في قصيدة بالشعر العامي على نسق الموشحات الأندلسية، خاطب فيها حمامته المعروفة بالورشان، ومطلعها (ابن مسايب، ١٩٨٩، ص ص ١٠٠ – ١٠٥):

يا الورشان اقصد طيبة ** وسلم على الساكن فيها

وقد حدد فيها مراحل الطريق إلى مكة، ووصف فيها الحجاز والأماكن التي عاش فيها أو نزل بها الرسول صلى الله عليه وسلّم، فعبرت بصدق عن عواطف دينية جياشة

وحب ناظمها للرسول صلى الله عليه وسلّم وارتباطه الروحي بأرض االحرمين الشريفين، فكانت تناولا مبتكرا للرحلات الحجية بأسلوب طريف في عرض مراحل الرحلة وأماكن العبادة بالحجاز.

٣. رحلة الحسين بن محمد السعيد الورثلاني (ت. ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م):

وُلد عام ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م بقرية أنّو ببني ورثلان بمنطقة القبائل (الجزائر) من أسرة تُعد من الأشراف وعُرفت بالعلم والصلاح. تلقى معارفه الدينية والفقهية بالحواضر الجزائرية، واكتسب احتراما وتقديرا لورعه وعمق إيمانه، وعُرف بتمسكه بالمذهب المالكي وبالطريقة الأشعرية، واهتمامه بكتب التصوف والتاريخ والتراجم والرحلات (سعيدوني، ٢٠١٣ ب، ص٤٥٢- ٤٥٧).

أدى الورثلاني فريضة الحج ثلاث مرات، الأولى عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م، والثانية عام ١١٦٦ هـ/ ١٧٥٢م، والثالثة عام ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م، اصطحب فيها زوجتيه وزوجة ابنه. وقد مكنته تلك الرحلات من التعرف عن كثب على أوضاع الحجاز وحضور حلقات العلم بالأزهر والحرمين ومجالسة الشيوخ، كما ساعدته مطالعاته وأسفاره على تصنيف العديد من الكتب أغلبها شروح وحواشي ورسائل في شكل إجابات عن مسائل فقهية وتعليقات وقصائد إخوانية منها قصيدته الميمية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلّم (سعد الله، ١٩٩٨، ج ٢، ص٤٠٧ - ٤١٢؛ الحفناوي، ١٩٨٢، ص ١٢٩ – ١٤٧).

لكن الورثلاني اشتهر برحلته الحجية "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٨١٩)، فعُدّ بها عميد الرحالة الجزائريين لسعة معلوماتها ودقة مشاهداتها، وقد استعان فيها بقراءاته للعديد من الرحلات وكتب التراث والتاريخ مثل طبقات الأمم للسبكي، ونوازل البرزالي، وكتب السيوطي وخاصة منها حسن المحاضرة، وكتب ابن فرحون والشطبي والبكري والمقريزي والسمهوري. كما تعمد تضمين رحلته نصوصا حرفية من كتب الرحلات التي اصطحبها معه في سفره، وهي رحلات أبي عبد الله العبدري، وأحمد بن ناصر الدرعي، وأبي سالم العياشي (العبدري، ١٩٦٨، ص٤٣؛ الدرعي،

١٩٠٢، ص٢٦٤؛ العياشي، ١٨٩٨، ص٢٦٥)، وقد حرص على ذكرها وإحالة القارئ إليها، بالإضافة إلى تدوين ملاحظاته وما رُوي له أثناء سفره وما شاهده شخصيا، مشيرا إلى ذلك بعبارة "قلت أو انعطاف أو عودة إلى ما كنا بصدده". فجاءت الرحلة الورثلانية في شكل موسوعة من الأخبار تتعلق أساسا بمسلك الحج وبأوضاع الحجاز (عزي، ٢٠١١، ص٩٣؛ Hadj-Sadok, 1951, p 396)، ولذلك ارتأينا التركيز عليها أساسا في البحث باعتبار أن معلوماتها تعكس إلى حد كبير أوضاع الحجاز خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة/ السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، رغم أنها تعود إلى القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر الميلادي.

٤. رحلة محمد بن أحمد بن عبد القادر المعروف بأبي راس الناصري المعسكري (ت. ١٢٣٨ هـ/ ١٨٢٣ م) (سعيدوني، ٢٠١٢ ب، ص٤٩٣- ٥٠٢؛ سعد الله، ١٩٩٨، ج ٢، ص ٣٧٦- ٣٨١؛ Faure Biguet, 1899, p 388-420):

وُلد بناحية معسكر (جبل كرسوط) بالجزائر حوالي عام ١١٥٠ هـ/ ١٧٣٧ م، وتلقى تعليمه بموطنه وبالعديد من المدن الجزائرية وفاس، وكان حريصا أثناء دراسته أو رحلاته على أخذ إجازات من الشيوخ الذين جلس إليهم، كما أبدى اهتماما كبيرا بالأنساب والتاريخ، وقد عُرف بكثرة مصنفاته التي بلغ عددها حسب روايته ٦٣ مصنفا، وأعلبها شروح لقصائد وتعليقات وتقاييد شخصية، أهمها "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" وهو ترجمة لقصيدته السينية (١١٨ بيتا) في فتح وهران، و"زهرة الشماريخ في علم التاريخ"، و"ما رواه الواعون في أخبار الطاعون"، و"درء الشقاوة في حروب درقاوة " (سعيدوني، ٢٠١٣ ب، ص٤٩٤– ٤٩٦؛ سعيدوني، ٢٠١٦، ص٣٦- ٣٨؛ ٢٠١٦؛ الناصري، ٢٠٠٧، ص ١٨٩).

تعرف أبو راس الناصري على الحجاز أثناء أدائه فريضة الحج سنة ١٢٠٤هـ/ ١٨٠٦م، فسلك طريق البحر من ينبع إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة، وجلس إلى العلماء، ووقف على المعالم الإسلامية، وسجل على عادته ما عرض له من لقاءات علمية في رحلته

الحجية التي عنونها بـ"عدتي ونحلتي في تعداد رحلتي" والتي ضاع نصها، وبقي منها ما سجله عن سفره بالمشرق في سيرته الذاتية بعنوان "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" (الناصري، ١٩٨٦، ص١٨٣)، والتي أفرد منها فصلا عن رحلته في المغرب والمشرق وهو الجزء الذي وصلنا وتمكنا من الرجوع إليه في التعرف على أوضاع الحجاز، ورغم أن الرحلة متأخرة عن فترة البحث إلا أن أهمية مضمونها يجعلها مصدرا لا غنى عنه يسمح بإلقاء الضوء على جوانب لم تتغير طيلة العهد العثماني ومنه القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر الميلادي.

ثالثًا: أوضاع الحجاز السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الرصيد المعرفي للرحلات الحجية الجزائرية

بالرجوع إلى الرصيد المعرفي الذي توفره الرحلات الحجية الجزائرية، يمكن التعرف على أوضاع الحجاز وذلك باعتماد منهج استقصائي للمعلومات التي توفرها لنا تلك الرحلات ومحاولة عرضها في مقاربة بنائية للمعطيات التاريخية والجغرافية التي توفرها نصوص تلك الرحلات، ليسهل عرضها في ثلاث نقاط أساسية، الأولى تتعلق بالوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي، والنقطة الثانية تخص الوصف الطوبوغرافي والعمراني للحجاز، والثالثة تعالج الروابط الروحية والتفاعل الثقافي بين الحجاز والجزائر.

١. أوضاع الحجاز السياسية والاجتماعية والاقتصادية:

أ. الوضع السياسي والإداري والأمني بالحجاز:

يُستخلص من مضمون الرحلات الحجية الجزائرية ومن بعض التقاييد الأخرى لكتاب الرحلات أن منطقة الحجاز كانت تعيش خلال القرن الحادي عشر وكذلك أثناء القرن الثاني عشر اضطرابا سياسيا نتج عن ضعف السلطة الحاكمة وتداخل صلاحيات الباشوات العثمانيين بجدة ومصر مع امتيازات ونفوذ أشراف مكة الذين يعود نفوذهم إلى الفترة الإسلامية واكتسبوا مع الوقت اعتبارا دينيا ومكانة اجتماعية وسياسية لدى جميع

السكان، وأصبح يُختار من بينهم من يتولى منصب الإمارة الذي يقره فيه السلطان العثماني، وقد تدعم منصب الإمارة بعد أن تولاه الشريف أبو نمي (٩٣٢– ٩٥٠هـ/ ١٥٢٥– ١٥٨٠م) الذي وضع قانونا يسمح بالمحافظة على مكانة الأشراف بالحجاز، وجعل منهم طبقة متميزة، ولم يحد السلطان العثماني في ذلك ما يمس بسلطته على الحجاز المعتمدة على القوة العسكرية المرابطة في الحصون والتي يمثلها الباشا العثماني متولي سنجقية جدة التي كانت تُلحق أحيانا بولاية الحبش (عبد الرحيم، ١٩٧٩، ص١٢١ – ١٢٢، ١٢٥).

مارست وظيفة الشرافة بالحجاز ثلاث عائلات استقلت بأمورها وتنافس أفرادها على تولي الإمارة، وهم ذوو بركات وذوو زيد وذوو عون، وقد استطاع الشريف قتادة وقومه من جهات ينبع ووادي الصفراء أن يكونوا إمارة بالحجاز تمتعت بنوع من الاستقلال الفعلي، لكن حدوث الشقاق والتنافس بين الأشراف جعل الشرافة تتحول إلى وظيفة أدبية بجانب السلطة الفعلية للباشا العثماني بجدة (عبد الرحيم، ١٩٧٩، ص١٢٣، ١٢٤؛ أنيس، ١٩٦٧، ص٣١).

وكان كل شريف من الأشراف يستميل إليه مجموعة من القبائل ويتقاتل الفريقان، فيتولى المنتصر منهم كرسي الإمارة، وينال بتأييد من أتباعه فرمان التعيين مقابل إبداء فروض الطاعة والولاء للسلطان باعتباره موظفا عثمانيا. ومع تزايد دخل الحجاز من رسوم المكوس في مواسم الحج، وتضخم عوائد الحج في مصر والشام والعراق منذ منتصف القرن الحادي عشر (١٠٤٠هـ/ ١٦٢٠م)، اشتد التنافس بين القوى الفاعلة محليا، فأصبح الولاة العثمانيون يزاحمون الأشراف على الأرباح التي يحصلون عليها نظير قيامهم على شؤون الحج وعمارة الحرمين، فكان الولاة يسعون دائما لإحداث الفرقة وإذكاء روح التنافس بين الأشراف الطامحين لتولي إمارة مكة، مما يبقي الباشا العثماني سيد الموقف، ويجعل ازدواجية السلطة بين الباشا والشريف وضعا يؤكد تبعية الحجاز للدولة العثمانية (عبد الرحيم، ١٩٧٩، ص١٢٣ –١٢٤؛ غرابية، ١٩٨٤، ص٢١٥)، قبل أن تتطور الأوضاع بظهور الدولة السعودية الأولى وتدخل محمد علي في الحجاز وتوسعه في نجد.

هذا وقد رصدت الرحلات الحجية هذه الأوضاع عن قرب، فالمقري كان على اتصال مباشر بشريف مكة (محسن بن الحسين أبي نمي) الذي كاتبه لما وُلي الإمارة تقديرا لمكانته، فردّ عليه المقري برسالة مؤرخة في حجة الحرام من عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م، فوصفه بسلطان الحرمين، وقد ضمّن رسالته أبياتا قدّر فيها مكانته (المقري، ٢٠٠٤ ب، ص ص ٧٦ – ٧٧):

ودام ظـلا عــلى الـزمـان ** ونــال ما شاء من الأماني

وحـيث حــلّت لـه ركـاب ** يصحب بـــالنصر الأمـــاني

لا زلت يا محسن الدنيا وسيدها ** ونيل عدلك يروي كل من وردا

ولا بَرِحْتَ مدى الأيام تحكم في ** سرح الحجاز موفى من عن وردا

كما تلقى المقري من أبي نمي خطابا من إنشائه وبه علامته بتاريخ أول محرم ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م، وُصف فيه المقري بـ "الشيخ العلامة الحبر الفهامة صدر المدرسين مفيد الطالبين مولانا الشيخ أحمد المقري المالكي أدام الله إجلاله وبلّغه آماله" (المقري، ٢٠٠٤ ب، ص٢٤١).

أما الورثلاني فقد تعرف في حجته الأولى على أمير مكة مسعود بن سعيد (ت. ١١٦٥هـ/ ١٧٥٢م)، وفي حجته الثالثة على الأمير مساعد بن مسعود (ت. ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م)، فلاحظ في عهد الأخير اضطراب أوضاع الحجاز و تردي الحياة فيها ، وأرجع ذلك إلى صراع الأمراء والأشراف للظفر بالإمارة ومنافستهم لباشوات جدة من أجل تأكيد مكانتهم، مما انعكس سلبا على الوضع الإداري بفعل كثرة عمليات العزل والتعيين حتى بين أفراد الأسرة نفسها، مما أدى إلى عجز الحكام عن إقرار الأمن وإنصاف الناس، فلم يعد، حسب قوله: "المرء آمنا على نفسه بعد أن أصبح الظلم يصدر عن الحكام" (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٤٢٢). وهذا ما أكده بقوله: "إن الزمان زاد في الظلم والتعدي، وأن ذلك صار من الأشراف وغيرهم من أصحابهم، فلا يكادون يرجعون عن التعدي" (الورثلاني، ١٩٠٨، ص ٤٢١)، وقد آلمه قتلهم رفيق صديقه سيدي محمد قسوم الريفي على

شربة ماء، وذهب به الحال من جراء اضطراب الأمن إلى القول: "أن الحج يكاد أن يكون ساقطا من ظلم الولاة وأصحابهم" (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٤٢٠، ٤٢٢).

ونفس الانطباع عن تردي الأوضاع بالحجاز كان قد لاحظه في فترة سابقة شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون (ت ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٣م) مفتي مدينة قسنطينة ومتولي إمارة ركب الحج من طرف حكام الجزائر العثمانيين، إذ صدمه جور الحكام وسوء حال المسلمين وضعف المحكومين، فانطوى على نفسه وفضل اللجوء إلى الله وتفويض أمره إليه (سعد الله، ٢٠٠٩، ص٣٧).

هذا وارتبط الوضع الإداري للحجاز في القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر الميلادي وما بعده بالوضع الأمني الذي كان سائدا عبر المسالك، وطبيعة العلاقات مع القبائل البدوية التي امتهن بعضها اللصوصية والاعتداء على قوافل الحج، ولم يتردد بعض أفرادها في الفتك بالحجاج وسلبهم جمالهم وأخذهم متاعهم، فالورثلاني كان كلما تحدث عن قافلة الحجاج أشار إلى اللصوص المتربصين بها وذكر ما عرض له أو سمعه من اعتداءاتهم على قوافل سابقة (هلايلي، ٢٠٠٨، ص٢٢٣)، فذكر أن الحجاج لم يعودوا ينزلون المحصب اتباعا للسنة لكثرة الإذاية والخوف من اللصوص (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٤٢١)، وأن بندر العقبة لم يعد الحجاج يأمنون فيه على أنفسهم لتعرضهم للنهب (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٩٨)، وأن ذلك جعل الركب المغربي يمشي نهارا بسبب الخوف من الأعراب (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٦٥)، وأن وادي السدرة به سرقة، وكذلك بندر عجرود، إذ ذكر "أن السرّاق أتوا إلينا أي إلى ناحيتنا فرفعوا جملا للحاج عبد الله الشياخي ولم يستطع استرجاعه" (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٣٣). كما أورد الورثلاني أن الخوف من الأعراب يستبد بالحجاج في تيه سبالة بعد مغادرتهم عسفان(١) (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٤٤٩)، وأن مضيق وادي العقيق الأولى له أن يسمى وادي العقوق لتلصص الأعراب به وجرأتهم (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٧٣).

(١) عسفان: بلدة تقع شمال غرب مكة المكرمة على بعد ٨٠ كلم منها.

ولم يستطع الحكام إصلاح هذا الوضع، كما لم يتمكن الجنود المرابطون ببعض الحصون من مواجهة اعتداءات قبائل البدو، فاكتفوا بالبقاء في حصونهم مثل بندر المويلح[1] الذي قال عنه الورثلاني أنه حصن كبير به عساكر، وحصن آخر في جرف واد كبير يعرف ببندر الوجه (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٧١- ٣٧٣)، فضلا عن وجود حاميات عثمانية بمكة والمدينة وجدة. علما بأن من أهم أسباب تعديات البدو عدم دفع العثمانيين للقبائل البدوية الأموال المتعارف عليها لعبور مناطقها، مما دفع بالكثير منها لذلك السلوك قبل بسط نفوذ الدولة السعودية.

وقد كان هذا الوضع المتردي إيذانا بتغير الوضع السياسي والنظام الإداري بالحجاز في فترة لاحقة عندما ظهرت الدولة السعودية الأولى بنجد وتمكنت من الاستيلاء على الحجاز في الأخير لإقرار الأمن والحد من جور الموظفين. وقد تعرف أبو راس الناصري على طلائع تلك الحركة عندما سجل في رحلته أنه تعرف على تسعة من علماء الدولة السعودية الأولى قدموا مكة في موسم الحج (سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م) (الناصري، ٢٠٠٤، ج١، ص١٩)، وسوف نذكر مساجلاته معهم لاحقا في القسم المخصص للروابط الروحية.

ب. الحياة الاجتماعية والوضع الصحي بالحجاز:

تناولت الرحلات الحجية الجزائرية الحياة الاجتماعية وما يتصل بها من أمور المعيشة والصحة من خلال ما عرض لأصحاب تلك الرحلات، وما شد انتباههم من عادات وتقاليد، وما لاحظوه من اختلاف طريقة العيش بين سكان المدن والبادية، والفرق في المعاملة بين الطبقة المحظوظة وهي جماعة الأشراف والموظفين ومن انضم إليهم من العلماء والتجار والطلبة وبين العامة الذين وجدوا في موسم الحج مصدر رزق لهم مقابل الخدمات التي يقدمونها للحجاج. كما لم يفت هؤلاء الرحالة ملاحظة الاختلاف بين مدينة وأخرى، فغلب -حسب ما سجلوه- على أهل مكة المكرمة التقشف، بينما كانت غالبية أهل المدينة

(١) المويلح: قرية بمحافظة تبوك شمال غرب المملكة العربية السعودية، تقع على البحر الأحمر، تقابلها في الساحل المصري بلدة الغردقة.

المنورة تنعم بالرفاهية وسهولة العيش (المنوني، ١٩٨٩، ص٣٠٣). كما حاولوا التعرف على مختلف القبائل في الصحراء وخاصة التي تعامل رجالها معهم أو كانت مواطنها قريبة من مسلك الحج، فذكروا من قبائل الحجاز: أعراب الحويطات وبني سعد وعقبة ومغازة بنواحي الينبوع، وعرب بني عطية بجوار العقبة، وأعراب مدين (العميرات) بنواحي مغاير شعيب،(١) وأعراب هتيم عند أكرا، وأعراب جهينة عند الحوراء، وعرب صبح عند بدر، وأعراب عنزة عند هدية (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٣٨- ٣٨٠ المنوني، ١٩٨٩، ص٤١٢)، بينما أغفلوا قبائل أخرى لعدم مجاورتها لمسلك الحجاج المغاربة مثل حرب بنو سليم وبلى و الحجادلة والجعافرة وهذيل وثقيف وجبيلة وزَهْرَان خشعم وغامد والناصرة (عبد الرحيم، ١٩٧٩، ص١٢٠ - ١٢١).

هذا وتطلعنا الرحلات الحجية الجزائرية على جماعة المجاورين بالحرمين الشريفين، خاصة من كان منهم من المغرب العربي، والذين فرضوا حضورهم بتفرغهم للعبادة والتدريس وبسلوكهم المنضبط، وقد كان جلّهم يعيش على الأعطيات والصدقات أو ما ينالونه مقابل أعمال يقومون بها، ويأتي في مقدمة من جاوروا بالحرمين ولو لفترة قصيرة جماعة من صفوة العلماء والمتصوفة، كان في مقدمتهم: محمد بن مرزوق (الجد) (ت. ٧٨١ هـ/ ١٣٧٩ م)، وابن مرزوق (الحفيد) (ت. ٨٤٢ هـ/ ١٤٣٨م)، وعبد الرحمن الثعالبي شيخ مدينة الجزائر (ت. ٨٧٥ هـ/ ١٤٧٠م)، وأحمد المقري التلمساني (ت. ١٠٤١هـ/ ١٦٣١ م)، وسعيد قدورة (ت ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م)، وعبد الكريم محمد الفكون (ت. ١٠٧٣ هـ/ ١٦٦٣م)، والشيخ أبو مهدي عيسى الثعالبي (ت. بمكة ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م)، ويحيى الشاوي (ت. ١٠٩٦ هـ/ ١٦٨٥ م)، وأحمد المنقلاتي (ت. ١١٠٠هـ/ ١٦٨٦م)، وأحمد بن بلقاسم الساسي البوني (ت. ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م)، والمفتي بن علي (ت حوالي ١١٦٩ هـ/ ١٧٥٩م)، والمنور التلمساني (ت. بعد ١١٧٢/ ١٧٦٠م)، وأحمد بن عمار الجزائري (ت. ١٢٠٥ هـ/ ١٧٩١م)، وأحمد بن المقايسي (ت. ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م) (سعد

(١)مغاير شعيب تُعرف حاليا بالبدع بمنطقة تبوك شمال غرب المملكة العربية السعودية.

الله، ٢٠٠٩، ص٣٤ – ٣٩؛ سعيدوني، ٢٠١٦، ج١ – ٢). كما أن الحسين الورثلاني (ت ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م) كان يرغب في المجاورة بالحرمين في حجته الأخيرة لكن إلحاح قومه عليه بالعودة اضطره إلى التنازل عن رغبته مواسيا نفسه بالحديث الشريف: "يبلغ المرء بنيته ما لا يبلغه بعمله." (الورثلاني، ١٩٠٨، ص ٥٢٩).

من جانب آخر تظهر الرحلات الحجية اختلاف أمزجة الحجاج بين مشارقة ومغاربة وبين مجموعات المغاربة من جزائريين وغيرهم، فسلوك حجاج المغرب الأقصى يطبعه الانتظام لأوامر أمير ركبهم، بينما يتميز الحجاج الجزائريون، حسب قول الورثلاني، بالغلظة وعدم احترام أوامر أمير الركب، وهذا ما عبّر عنه بقوله: "إن أهل وطننا فيهم الغلظة والجفاء وسوء الأدب وعدم إذعانهم للحكم... فالركب الجزائري لا حكم عليهم أصلا ولا يتوقفون عند الأمر والنهي." (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٥٤٢).

على أن العقيدة الإسلامية ظلت دائما عاملا يرسخ الأخوة في الدين ويحفز على الإحسان في المعاملة والرغبة في القيام بأعمال الخير، فالكل يسعى لأداء مناسك الحج والوقوف على الأماكن التي عاش فيها الرسول صلى الله عليه وسلّم وصحبه، وكان ذلك أساس تآخي الحجاج رغم اختلاف أصولهم وتباين عاداتهم، وعامل الانسجام بينهم وبين سكان الحجاز، بحيث كان المجتمع الحجازي بيئة متفهمة وحاضنة لجميع مكونات المجتمع المحلي والفئات الوافدة في موسم الحج أو الراغبة في المجاورة بالحرمين.

أما الجانب الآخر من الحياة الاجتماعية فهو ما يتعلق بالجانب الصحي، فكان ظهور الوباء وانتشار الطاعون من الهواجس التي تقض مضاجع الحجاج والمجاورين وغيرهم من سكان الحجاز، وقد تضمنت الرحلات الحجية الجزائرية، خاصة رحلة الورثلاني، أخبارا ضافية عن حالاته، فاعتبروه ابتلاء من الله وعبرة لعباده وعقابا لهم بسبب شيوع المعاصي في الأرض، وما كان من الحجاج إلا أن فوضوا أمرهم إلى الله، واستسلموا لقضاء الله و قدره ، و منهم من كان يلتجيء إلى التوسل بالصلحاء والأولياء اعتقادا منهم باحتمال الاستجابة لدعائهم وتوسلاتهم، فغفلوا عن الاحتراز من الوباء واعتبره بعضهم مثل المكوس التي

تطهر النفس، فاعتبر الورثلاني الحمى التي أصابته في المدينة المنورة هدية من الرسول صلى الله عليه وسلّم إلى ضيوفه (الورثلاني، ١٩٠٨، ص ٥١٢، كما رأى في الإسهال بلاءً من الله لمعرفة من قلبه سليم وقوي (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٥٥٦)، وأن ماء زمزم عذبا مباركا مهما يقال عنه (الورثلاني، ١٩٠٨، ص ٤١٩).

ج. النشاط الاقتصادي بالحجاز:

توفر الرحلات الحجية الجزائرية موضوع البحث معلومات مهمة عن النشاط الاقتصادي والمهارات الحرفية ووضعية الزراعة وحالة التجارة والتبادل وما يتصل بها من ظروف العيش وسنوات الخصب أو القحط وتوفر البضائع في الأسواق، فقراءة متفحصة لتلك الرحلات تسمح للباحث برصد الواقع الاقتصادي بالحجاز في مواسم الحج. وحتى نتمكن من تكوين فكرة عن ذلك سوف نحاول استخلاص ما تضمنته رحلة الورثلاني عن عنصر الماء، سواء كان في شكل أمطار أو ينابيع أوآبار، قبل أن نتطرق للمعلومات الخاصة بالمنتوجات الزراعية والسلع والتبادل التجاري.

١. **عنصر الماء**: أولت الرحلات الحجية الجزائرية أهمية خاصة لعنصر الماء من حيث توفره أو ندرته أو نوعيته أو أماكن الحصول عليه من آبار ومنابع وعيون ومعاطن وحفائر وسيول وبرك وأحواض وقنوات سقي، فتوفر عنصر الماء يحدد محطات الطريق ويضبط مسافات السير وأماكن توقف الركب. فبالرجوع إلى ملاحظات الرحالة وخاصة ما سجله الورثلاني، يمكن رسم خريطة لنقاط الماء عبر مسلك الحجاج بالحجاز، بمسايرة طريق الركب من العقبة إلى المدينة المنورة أو مكة المكرمة،(١) وهذا ما يمكن استخلاصه خاصة مما ورد في رحلة الورثلاني (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٤٤، ٣٤٧، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨١، ٤٥١): فمن وادي السدرة إلى العقبة طريق صعب يعاني فيه الحجاج مشقة الحر والعطش، وأن دار السلطان بها آبار السلطان، ووادي الأكره به سيول وماؤه لا يستساغ مر المذاق، وبالدركين بئر درك،

(١) انظر خريطتي مسلك الركب الجزائري عبر الحجاز الملحقتين بالبحث.

وبالحوراء آبار على حفائر على ساحل البحر ماؤها مالح كثير الإسهال، ومغاير شعيب بها ماء جار، وكذلك عيون القصب بها ماء جار عذب، وبندر الأزلم بها ثلاثة آبار مبنية بالحجارة وماؤها يسبب الإسهال، وبالنبط أربعة آبار حلوة، بينما وادي النار يشتد به العطش، أما الخضيرات فليس بها ماء، وبإصطبل عنتر ثلاثة آبار، وينبع النخيل هي قرى بها عيون، وبندر بدر ماؤه عذب بها بركة كبيرة تكفي الأركاب، ومستورة[1] بها بئر كبير مطوية بالحجر المنحوت غلب عليها الرمل، وخُليص الماء فيه بوفرة عظيمة وبها بركة ماء كبير يغرق فيها من لا يحسن السباحة ومنها تخرج السواقي إلى الأرض المحروقة، ورابغ[2] بها آبار كثيرة في واد يأتي إليها السيل من بعيد، وقُديد لا ماء فيها إلا ما يجلب من بعيد، عسفان ماء عذب ولكنه ساخن، ومنها إلى البئر التي يُقال أن الرسول صلى الله عليه وسلّم تفل بها، ماؤها حلو والشرب منه تبركا، ووادي فاطمة كثير المياه والبساتين، ووداي الشريف بها عيون ماء.

٢. **المنتجات الزراعية والتبادل التجاري**: تتضمن الرحلات الحجية الجزائرية معلومات تتعلق بالإنتاج الزراعي والنشاط الرعوي والتبادل التجاري، غالبا ما ترد عرضا في سياق وصف مسلك الحج عبر الحجاز.

فالنباتات البرية والمزروعات ورد ذكرها لدى الورثلاني في الأماكن التالية (الورثلاني، ١٩٠٨، ص ٣٣٧، ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٦١، ٣٦٦، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٨، ٤٥١):

مغارة شعيب: به نخل عظيم وغيضة؛ عيون القصب: به كثير من القصب؛ الدركين: به غياض شجر الطلح؛ العقبة السوداء: و هي حرة بها أشجار؛ الحوراء: بها ديش كثير؛ ينبع النخل (النخيل): به مزارع نخل؛ بندر بدر[3]: قرية ذات نخيل، وهي قرية عظيمة طيبة وروضة من رياض الله؛ مستورة: قرية بها نخيل وهي كثيرة المزارع والمغاني؛ رابغ: قرية

(١) مستورة: بلدة بالحجاز تقع على البحر الأمر شمال جدة على بعد ٢٠٠ كلم منها، تتبع حاليا محافظة رابغ.

(٢) رابغ: بلدة بالحجاز، تقع على البحر الأحمر شمال مدينة جدة على بعد ١٠٠ كلم منها.

(٣) بندر بدر: حاليا هي بلدة تتبع محافظة المدينة المنورة، جنوب غرب المدينة على بعد ١٣٠ كلم، وقعت بأرضها معركة البدر التي انتصر فيها المسلمون على المشركين، وفيها قبور شهداء المعركة.

عظيمة بها نخيل وكثيرة المزارع والمغاني والنخيل؛ وادي سرف (الشريف): به نخيل وبساتين.

أما أسواق التبادل التجاري عبر مسلك الحجاج الجزائريين والتي ذكرها الورثلاني في رحلته، فهي (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٣٢، ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٦١، ٣٦٧، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٨):

منزل العقبة وهو حصن توضع فيه ودائع الحجاج، وينبع وهي مرسى وأسواق وهي أول بلاد الحجاز وملتقى الأركاب (المصري والجزائري والفيلالي والفزّاني)، ودار الوقدة يوقد بها الشمع الكثير، وبندر بدر ملتقى الأركاب وموطن الأشراف وتوقد به النيران، وينبع تنزل بها الأركاب وأسواقها عظيمة، ورابغ يلتقي بها الركب المصري والشامي، وقُديد قرية بها مقاهي وتباع بها الفواكه، وعسفان بها أسواق، ووادي الشريف ملتقى الركب الشامي والمصري.

ويُستخلص من مضمون الرحلات الحجية، وخاصة رحلة الحسين الورثلاني الذي تتعلق بالقرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر الميلادي مع كونها تعود لفترة لاحقة،ـ أن اقتصاد الحجاز كان قائما أساسا على التبادل التجاري، خاصة في موسم الحج. وكان القمح ثم الأرز أهم مواد النشاط التجاري يضارب بها أشراف مكة، وتستورد أغلبها على طريق جدة من مصر والهند. وكان قليل من سكان الحجاز مستقرين يشتغلون بزراعة النخيل وبعض المنتوجات الأخرى مثل الحناء، إلى جانب ممارسة بعض المهن، أو يعيشون على الصيد في ساحل البحر الأحمر، أما غالبية السكان وهم ينتمون لقبائل بدوية قد تمثل ثلثي السكان فيعيشون على الرعي وتبادل منتوجاتهم وينتفعون من عوائد موسم الحج، وقد يلجؤون إلى النهب، ويستفيدون مما يُقدم لهم من هدايا وأعطيات لتأمين الطريق (كحالة، ١٩٢٥، ص١١٧).

رابعًا: الوصف الطوبوغرافي والعمراني للحجاز من خلال الرحلات الحجية الجزائرية

أ ـ الوضع الطوبوغرافي لمسلك الركب الجزائري:

تناولت الرحلات الحجية الجزائرية أرض الحجاز باعتبارها موطنا للوحي تهفو إليه القلوب، وتتشوق النفوس للوقوف على المواطن التي عاش فيها الرسول صلى الله عليه وسلّم والتعرف على مظاهرها الطبيعية لارتباطها بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلّم وبالتاريخ الإسلامي في فترة النبوة وفي زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وهذا ما يمكن الباحث من تصور طوبوغرافية وعمران الحجاز، قبل أن تتغير ملامحه بفعل التطور العمراني الحديث.

وقد تحكمت طوبوغرافية المنطقة في تحديد مسلك الحج المصري والمغاربي عبر الحجاز من العقبة إلى المدينة المنورة وإلى مكة المكرمة، فجبال الحجاز (السراه) باعتبارها حاجزا بين البحر الأحمر وهضبة نجد جعلت من الحجاز منطقة متميزة بارتفاعها واعتدال مناخها نسبيا، بينما المنخفضات الساحلية (تهامة) شديدة الحر وتسود بها رطوبة مرتفعة وبين الهضبة الداخلية (نجد) التي يفصلها عن الحجاز خط ارتفاع ٤٥٠ م، ويكون متوسط ارتفاع منطقة الحجاز الجبلية ٩٠٠ م، أعلاها جبال الشفاء (جبل اللوز ٢٤٠٣ م) في أقصى الشمال المتاخم لأرض الشام والقريبة من العقبة (أيلة). وقد حددت هذه المعطيات الطبيعية مسلك الحج المغاربي الذي يساير في الشمال سفوح الحاجز الجبلي ويصبح الطريق ضيقا جدا بين البحر والجبل بين العقبة وعيون القصب بحيث لا يمر به إلا جمل إثر جمل، وكأنه متن الصراط حسب تعبير الدرعي ، بعدها يحاذي الطريق ساحل البحر من المويلح إلى الوجه،[1] ثم يتجول الطريق إلى الداخل و يسهل السير فيه رغم مرتفعاته الجبلية و بعض الأودية التي تعبره (أكرا، العقيق ، النبط ، النار) قبل أن تنفرج الجبال عن سهل تهامة الواسع والذي يصل اتساعه عند ينبع حوالي ٦٠ كلم ،تعبره بعض الأودية (رابغ، العميان، الزاهر) يصل بعضها

(١)الوجه: بلدة جنوب غرب منطقة تبوك على البحر الأحمر.

البحر الأحمر ويغذي بعضها الآخر القيعان والسباخ في السهل الساحلي (غنيم، ٢٠٠٥، ص٥٢- ٥٧؛ الشرقاوي، ١٩٥٢، ص٣١٧).

وقد ذكرت الرحلات الحجية طبيعة المنطقة، فذكر الورثلاني لون الجبال وطبيعة الأرض ونوعية التضاريس بقوله: "إن لون جبال وأراضي مصر أقل سوادا منها في الحجاز" (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٤٧). كما لاحظ طوبوغرافية الطريق فذكر أن الجبال تساير خليج العقبة وما بعده إلى جبال سلمى وكفانة حيث يوجد قبر الشيخ مرزوق الكفافي (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٤٣)، وبعد أن تنفرج الجبال تضيق من جديد بين وادي الأراك وبندر الوجه، لتصبح الأرض حرات (طفح بركانية)، ويصبح السفر عبرها من أشد منازل الطريق وأصعبها. لكون الطريق يصبح مسلكا ضيقا يؤدي إلى وادي العقيق ووادي النار والخضيرات ومنه إلى سبع وعرات حيث تزداد صعوبة السفر لوعورة الطريق وانعدام المياه بها (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٦١، ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨١).

ولا يتسع الطريق و يستوي إلا بجهات ينبع (بطن ينبع وينبع النخيل)، و منه نحو بندر بدر حيث تلتقي الأركاب بالقرب منها غير بعيد عن قبور الشهداء، لكن الطريق تكتنفه الرمال عند مستورة، ومنها إلى رابغ ملتقى الركب المصري والركب الشامي، منها إلى الجحفة ثم قُديد، وهي قرى غالب بيوتها خيشان وبها مقاهي، ومنه إلى العقبة (عقبة اسكر)، ومنها يصبح الطريق مبلطا إلى عسفان، ومنه عبر مفازة رقة (تيه سيالة) إلى وادي الشريف (سرف) (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٣٢، ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٦١).

ب ـ محطات مسلك الركب الجزائري عبر الحجاز:

تحكمت نوعية التضاريس وطبيعة الطوبوغرافية في الجهات الشمالية الغربية لمنطقة الحجاز في تحديد مسلك الحج الخاص بالركب الجزائري ومن معه من ركاب مصر وأقاليم المغرب العربي (الفاسي، المراكشي، الفلالي، الدرعي، الشنقيطي، الفزاني)، بحيث أصبح يساير في جزء كبير منه ساحل البحر الأحمر بين العقبة و قصبة الوجه ، عكس مسلك المركب السلطاني المنطلق من إستانبول والعابر لبلاد الشام والذي يساير مسلكا داخل الحجاز بعيدا

عن ساحل البحر والذي قد يسافر عبره من يريد زيارة بيت المقدس ودمشق من الحجاج الجزائريين.[1]

ويمكن تحديد طوبوغرافية طريق الركب الجزائري مع ركاب أقاليم المغرب ومصر من خلال تتبع العديد من الرحلات المغاربية ومنها الجزائرية، ولعل أهمها من حيث دقة الوصف وتفصيل المعلومات رحلة الحسين بن محمد السعيد الورثلاني التي تسمح للباحث بتحديد مسلك ركب الحج الجزائري، فقد حدد معالم الطريق ومحطاته بين العقبة ومكة المكرمة ، عبر مسافة ١١٥٠كلم ، تتضمن ٢٥ مرحلة تقطعها قافلة الحجاج خلال شهر ، وقد سجلت الرحلات الحجية منازل الطريق كالتالي:

– سطح العقبة (أو منزل أو حصن أو بئر العقبة أو عقبة التيه) – ظهر الحمار (ممر ضيق بين جبلين) – أم العظام (قرب عش الغراب) – شرف بن عطية (أو شرفات) – مغاير (أو مغارة شعيب) – عيون القصب – بندر وقصبة المويلح – دار السلطان (أو آبار السلطان) – شق العجوز – بندر الأزلم – إصطبل عنتر (أو بئر عنتر) – قصبة الوجه – وادي الأراك – وادي الأكره (الأكر أو الأكرى) – الدركين (أو بئر درك) – وادي المسيل متصل بالبحر (يعرف بماء الحورة أو الحوراء) – العقبة السوداء – وادي العقيق (وهو غير وادي العقيق القريب من المدينة) – ماء النبط (بلاد جهينة) – وادي النار – الخضيرات (الخضيرة) – سبع وعرات (مضيق يتربص به الأعراب) – بطن ينبع (أو الينبوع به مسجد مكان غزوة العشيرة) – بندر النخيل – بندر ينبع – السقائف – الصفراء.[2]

(١)مسلك الحج الشامي: أهم محطاته عبر الحجاز: ظهر العقبة، المدورة، حالة عمار، ذات الحاج، تبوك (وادي الأثيلي)، قلعة الأخيضر، قلعة المعظم، الدار الحمراء، المطلع، المزحم، الحجر (مدائن صالح)، العلا، البدائع، سهل المطران، بئر الزمرد، البئر الجديدة، المصورة، الصويرة، المديرج، هدية، جراعة، أبو النعم، اصطبل عنتر، البوير، بئر نصيف، المدينة المنورة. انظر الخريطة الملحقة بالبحث، رقم (١).

(٢)انظر خريطة مسلك الحجاج الجزائريين الملحقة بالبحث (خريطة رقم (١))، ومما يُلاحظ أن خط سير مسلك ركاب الحجاج المغاربة، ومنه الجزائري، ظل ثابتا ولم يعرف تغيرا إلا في فترات متباعدة ولمسافات قصيرة حسبما يُستنتج من تتبع أوصاف الرحلات الخاصة بابن مليح والدرعي والعياشي والورثلاني وأبي القاسم الزياني. كما يُلاحظ في العديد من الرحلات، ومنها رحلة الورثلاني، اضطرابا في ترتيب وتتابع منازل ومحطات الركب، ولعل ذلك يعود إلى تداخل تقاييدهم أو أنهم سجلوا مسار رحلاتهم في وقت متأخر.

وعند الصفراء يفترق الطريق المؤدي إلى المدينة المنورة عن طريق مكة المكرمة،فالذي يتجه إلى المدينة المنورة يمر بالروحاء أو فم الروحاء (بالقرب منه مسجد غزالة أو عرف طيبة) والسيالة – ملل الحفير – ذو الحذيفة والعقيق (الأكبر)، فالمدينة.[1]

أما الذي يواصل الطريق إلى مكة فيتجه نحو وادي الوقدة (دار الشعلة) ومنه إلى بندر بدر الجديدة (به قبور الشهداء أسفل الوادي و عريش النبي صلى الله عليه وسلّم، حيث مسجد الغمامة ، وفي أسفل الكثيب (مراقد الكفر) – مسجد غزالة – قاع البزوة (أو سبيل البزوة أو سبيل السلطان) – ومستورة (ستارة أو قاع مستورة أو البزوة أو المنحوت) – هرشاء (أو عقبة هرشي) – رابغ أو رابغ الرمل (تحاذيه شرقا الجحفة ميقات أهل مصر والمغرب) – المشلل (عقبة السكر) – قديد (خيمة أم معبد) – عقبة السكر ـ الخليص– عسفان (به بئر يقال تفل فيها الرسول صلى الله عليه وسلّم عليه مسجد) – وادي العميان – بطن مرّ (أو مرّ الظهران) – وادي سرف (أو وادي الشريف) أو وادي فاطمة (به مسجد مكان قبة أم المؤمنين أميمة، حيث بنى بها الرسول صلى الله عليه وسلّم وحيث توفيت) – التنعيم (مسجد عائشة) – جنان الزهراء ـ الحجون (مقابر مكة) – الحرم المكي.[2]

ج ـ المظاهر العمرانية والمعالم التاريخية عبر مسلك الحجاج الجزائريين :

إذا استثنينا المراكز الرئيسية بالحجاز وهي مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والطائف، فإن الرحلات الحجية تؤكد لنا أن عمران الحجاز محدود لطبيعة المنطقة الصحراوية و لتغلب البداوة وانحصار المراكز العمرانية في قرى تعتمد على التبادل التجاري والزراعة تعرف بالبيادر (ج. بيدر) لا يتجاوز عددها عشرة أهمها: بندر العقبة، بندر المويلح، ينبع النخل، بدر، مستورة، رابغ، قُديد، عسفان (الورثلاني، ١٩٠٨، ص ٣٦٦، ٣٧٠، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٧-٣٧٨-٣٨١).

(١)انظر خريطة مسلك الحجاج الجزائريين عبر الحجاز الملحقة بالبحث (خريطة رقم (٢)).

(٢)انظر خريطة مسلك الحجاج الجزائريين عبر الحجاز الملحقة بالبحث (خريطة رقم (٢)).

كما حظيت المظاهر العمرانية بالحجاز المرتبطة بمناسك الحج باهتمام الرحالة، فخصّوها بأوصاف ضافية ودقيقة، خاصة الحرمين الشريفين (الحرم المكي والحرم النبوي) وما حولهما من معالم تاريخية ومزارات دينية، مما يتوجب عرض أوصافها كما وردت في أهم الرحلات:

١. **مكة المكرمة**: تشوّق إلى الوصول إليها الرحالة، فخصّها الورثلاني بعبارات التعظيم والمدح والإجلال عندما ذكر دخوله إليها بقوله "فدخلنا مكة... وكأن النفوس في وليمة عظيمة لا يعلمها وما فيها من الفرح إلا الله، بل الأوراح قد تجلى عليها ربها، فخرت صعقة مغشية عليها فغيبها عن الأكوان كلها بمشاهدة سكونها" (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٥٢)، ووصفها أبو راس الناصري في حجته بأنها "أم القرى ذات المكارم والعلى والعرى ... ذات النعم المفعمة ... والمقر الأشرف، درة السلك النضيد وبيت المعاني إليه القصيد ... وأول بيت وُضع للناس" (الناصري، ١٩٩٠، ص ١١٨).

وقد حرص أغلب الرحالة على التأكيد على مكانتها ووصف عمارة المسجد الحرام، وتلمس أحداث السيرة النبوية في مشاهدها، و الوقوف عند بعض المعالم المهمة مثل الدار التي وُلد بها الرسول صلى الله عليه وسلّم، وكذلك دار أبي بكر، ففضّل الورثلاني الدخول إليها من الثنية العليا التي دخل منها الرسول صلى الله عليه وسلّم مكة، وقد تأسف على أن ولاتها (ولاة مكة) قد بالغوا في حفر الثنية وفي تنقيبها حتى صارت كأحد الأزقة حسب وصفه (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٨٤).

٢. **المدينة المنورة**: حظي المسجد النبوي الشريف بأوصاف ضافية فيها كثير من الثناء والتبجيل، خاصة الروضة الشريفة، وكانت عمارته موضع اهتمام العديد من أصحاب الرحلات الحجية الجزائرية الذين عبروا عن تشوقهم إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلّم بعبارات التشوق، فذكرها أبو راس الناصري بقوله: "ثم رحلت إلى طيبة.. المدينة المشرفة، فيا حبذا بمهبط الوحي وتشريع الأحكام، نعم المهاد ومبعث الجيوش والسرايا للجهاد وضريح سيد المرسلين.." (الناصري، ١٩٩٠، ص١١٩). كما نظموا في معالمها

العديد من القصائد، فأحمد المقري يؤلف قصيدة عنها عند حلوله بها (محرم ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ مـ)، نذكر منها هذه الأبيات (المقري، ٢٠٠٤ ب، ص ١٠٨):

فحط رحل القصد في طيبة ** فهذه قبة طه تَلُوحُ

وهذه الروضة ذات السنى ** ومسجد التقوى العلي الصروحُ

ومهبط الوحي الذي لم يزل ** به من الوهاب تأتي الفتوحُ

وتلك أرض كان يمشي بها ** فعرفها في كل وقت نُفُوحُ

ويماثله في ذلك الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي نظم رحلة حجية مع تلميذه سيدي عمر الشيخ الكنتي (الصديق، د.ت، ص ٢٣٨، شترة، ٢٠١٥، ص٢٦٢)، ذكر فيها معالم المدينة المنورة بقصيدة مطلعها (الكنتي، د.ت، ص٢٤٢ – ٢٤٣؛ شترة، ٢٠١٥، ص.٢٦٣):

بشراك يا قلبي هذا سيد الأمم ** وهذه حضرة المختار في الحَرَمِ

وهذه الروضة الغرَّاء ظاهرةً ** وهذه القبة الخضراء كالعلم

خامسًا: الروابط الروحية والتفاعل الثقافي بين الحجاز والجزائر من خلال الرحلات الحجية الجزائرية.

تضمنت الرحلات الحجية الجزائرية معلومات مهمة عن الحياة الثقافية والروحية بالحجاز وانعكاسها على المجتمع الجزائري آنذاك.

١. فمن حيث **الجانب الثقافي** سجلت لنا تلك الرحلات اللقاءات العلمية، وأشارت إلى حلقات الدرس والإجازات وأسانيد الحديث والمطارحات العلمية، وما تميّزت به من نقاش وجدال ومناظرات وإبداء الرأي في الأحكام، بحيث يمكن استخلاص ثبت بهذه المسائل ووضع قوائم بأسماء المشايخ والمتصوفة وطلبة العلم. وهذا ما يجعل الحج بالإضافة إلى كونه أداء لفريضة دينية ،مناسبة لاكتساب المعرفة والتفقه في الدين بالجلوس إلى حلقات العلم بالحرمين وحضور المناظرات والاستماع إلى قصائد في المديح النبوي وأخذ أسانيد الحديث والاطلاع على الكتب ونسخ بعض المخطوطات. وقد تسمح الرحلة الحجية لبعض

العلماء بالتأليف، فالعالم الجزائري أبو مهدي عيسى الثعالبي الزواوي (ت. ١٠٨٠ هـ/ ١٦٦٩ م)[١] عندما تحول من القاهرة للمجاورة بالحرمين حرص على جمع الأسانيد وتصنيف ما انتهى إليه منها في كتابه "كنز الرواية"، حسبما ذكر تلميذه أبو سالم العياشي صاحب رحلة ماء الموائد (سعد الله، ٢٠٠٩، ص٣٨)؛ كما عكف يحيى الشاوي الذي انتقل من الجزائر إلى إستانبول ومنها إلى الحرمين على وضع مصنفاته العديدة في الفقه والحديث بالحجاز، وقد دخل في مهاترات مع أحد علماء الحرمين وهو إبراهيم الكوراني (سعد الله، ٢٠٠٩، ص١٣٨).

ومن جهته عقد أحمد المقري التلمساني أثناء حجّاته المتكررة صلات علمية مع وجهاء وعلماء وحكام الحرمين، فنال منهم التقدير وخصّه بعضهم بالثناء والمديح نثرا وشعرا حسبما أثبت ذلك في رحلته، كما أنه ألّف أثناء مجاورته بالمدينة المنورة كتابيه: "فتح المتعال" عن نعال الرسول صلى الله عليه وسلّم و"أزهار الكمامة" (سعد الله، ١٩٩٨، ج ٢، ص ٢١٧).

وقد تعمقت صداقة المقري العلمية بالعديد من علماء الحرمين الشريفين، منهم خطيب الحرم تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم الملكي المكي الذي أجازه المقري، وكذلك مفتي الحرم الشريف وخطيبه القاضي عبد اللطيف أنسي (ت ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م)،[٢] الذي مدحه المقري بقصيدة مطلعها (المقري، ٢٠٠٤ ب، ص٩١):

يا مبلغ النفوس ما تنويه ** من رتب التشريف والتنويه

(١) أبو مهدي عيسى الثعالبي ولد في الجزائر في مطلع القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. درس الفقه والحديث بمدينة الجزائر، وكانت له حظوة لدى حكام الجزائر العثمانيين. انتقل إلى تونس ومنها إلى مصر والحجاز حيث درس الفقه وعلوم الحديث واللغة. توفي بمكة المكرمة.

(٢) عبد اللطيف أنسي الحنفي صاحب رسالة الأنسي إلى المولى عبد الله بن عمر معلم السلطان عثمان الثاني.

ولعل صداقة المقري مع مفتي الحرم المكي الحنفي عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد (المرشدي)[1] كانت أعمق حسبما يستنتج من المراسلات التي تبادلاها، فقد أشاد المقري به في إحدى قصائده (المقري، ٢٠٠٤ ب، ص ٦٨):

يا سائق الإظعان يزجي العيسا ** أبلغ سلامي للرضي ابن عيسى
شيخ شيوخ واحد الزمان ** مفتى الأنام عابد الرحمن
بحر العلوم جامع الأنحاء ** من خص بالإفتاء في البطحاء

وفي رسالة أخرى له عدّد المقري خصال الشيخ المرشدي، واعتبره عالم قطر الحجاز (المقري، ٢٠٠٤ ب، ص ٨٨):

شيخ المشايخ عابد ** الرحمن ذو الخلق الملائم
أعني ابن عيس من تقر ** له الأعارب والأعاجم
...
فهو الوجيه ولا مجاري ** والجواد ولامصارم

وقد بادل المفتي عبد الرحمن المرشدي المقريَ عبارات التقدير والإجلال، ففي رسالة وجهها له مؤرخة في شهر ذي الحجة (١٠٣٤ هـ / ١٦٢٥ مـ) وصفه "بفجر العلماء العاملين وذخر الفضلاء الكاملين صدر المدرسين مفيد الطالبين مولانا الشيخ أحمد المقري" (المقري، ٢٠٠٤ ب، ص ٢٢٦).

كما أن أحمد بن بلقاسم الساسي البوني (ت. ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م) عالم مدينة عنابة الذي مكث في الحجاز فترة يتلقى العلم ويتصل بالعلماء الذين أدرجهم في تراجمه "الدرة المكنونة في علماء بونة" (الساسي البوني، ١٩١٣؛ الكتاني، ١٩٨٢، ج ١، ص ١٣٦)، ذكر ما يزيد عن عشرين من شيوخه بالحجاز في رحلته الحجية "الروضة الشهية في الرحلة

(١) أبو الوجاهة المرشدي (975 – ١٠٣٧ هـ/ 1628/ م): مفتى الحرم المكي وأحد الشعراء العلماء في الحجاز. ولد بمكة، وتولى ديوان الإنشاء في ولاية الشريف محسن بن الحسين بن أبى نمى، وإمامة المسجد الحرام وخطابته والإفتاء السلطاني سنة ١٠٢٠ هـ.

الحجازية"، مع أخبار رحلته وإقامته بالحجاز والتي لا يُعرف عنها إلا ما ذكره ابنه الشيخ أحمد زروق، بعد أن فُقد أصلها على الأرجح بالحرمين الشريفين (سعد الله، ١٩٩٨، ج٢، ص٣٩٠). ويماثلها في ذلك ضياع القسم الخاص بالحجاز والمخصص للحرمين من رحلة عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري (ت. حوالي ١٢٠٠ هـ/ ١٧٩٣ م) المعروفة بـ"لسان المقال عن النسب والحال" أثناء وجوده بالحجاز وإقامته بمصر منذ ١١٦١ هـ/ ١٧٤٨ م (ابن حمادوش الجزائري، ١٩٨٢، ص٣١٨).

أما الشاعر والأديب مفتي الجزائر أحمد بن عمار (ت. حوالي ١٢٠٥ هـ/ ١٧٩١ م) الذي جاور بالحجاز (١١٦٦– ١١٧٢هـ/ ١٧٥٢ – ١٧٦٢ م)، وكتب رحلته الحجية "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب" التي ضاعت ولم يصلنا إلا القسم الأول منها المعروف بالنبذة (ابن عمار، ١٩٠٣، ص٢٨٢)، فقد أخذ الحديث بالحجاز عن أبي حفص عمر بن عقيل البلوي، كما أخذ مبادئ الطريقة الشاذلية عن عبد الله محمد التوّار التلمساني، ومن الراجح أنه أجاز قبل أن يتوفي بمكة محمد خليل المرادي (حوالي ١٢٠٥ هـ/ ١٧٩١م) (سعد الله، ١٩٩٨، ج ٢، ص٢٢٥).

وكذلك الحسين الورثلاني الذي تعرف على مجالس العلم بالحرمين، حيث لقي حسب قوله "كثيرا من الفضلاء الأجلّة والبدور الأهلة" (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٣٦٠ – ٣٦١)، وارتبط بصداقة علمية مع الشيخ السمان القرشي المدني الذي استضافه بداره بالبقيع، فأثنى عليه ووصفه "بالصفيّ الودود والنقيّ ذي الأحوال الصادقة والأنفاس الطيبة والأعمال الزكية والمواجد الأهلية والمعارف الربانية والعلوم الدينية صاحب الأوراد والمريدين" (الورثلاني، ١٩٠٨، ص٥٣٠).

وفي فترة متأخرة حرص شيخ مؤرخي العهد العثماني بالجزائر محمد أبو راس الناصري (ت. ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م) الذي حج مرتين (١٢٠٤ و١٢٢٦هـ/ ١٧٩٠ و١٨١١م) على أن يضمن رحلته ما عرض له من نقاش وجدال، وما ناله من إجازات، وما عقده من صلات أو حضره من دروس بعض الفقهاء، مما يؤكد التفاعل الثقافي مع علماء الحرمين الشريفين.

فذكر عن نفسه أثناء حجته الأولى: "أنه اجتمع بعلمائها (مكة) وفقهائها كالعلامة الدارك السيد عبد المالك الحنفي (الشامي القلعي) وقرأ عليه نبذة من الحديث ونبذة من الكنز وشيئا من التفسير في سورة النور، وأجازني بالباقي" (الناصري، ١٩٩٠، ص١١٨). كما أشاد بالشيخ العلاف الذي تعرف عليه بينبع ووصفه بأنه أعظم الشيوخ الذين التقى بهم، وقال عنه أنه من الأئمة الكبار وأنه فارس المنبر، وروى عنه صحيح البخاري وحصل منه على إجازة (الناصري، ١٩٩٠، ص١١٨). وأثناء ذلك تعرف على مفتي الحنفية الشيخ عبد الغني، وكذلك مفتي المالكية الشيخ الحسين المغربي، وغيرهم من العلماء مثل الشيخ الزاهد عبد الرحمن التادلي المغربي. ومما ذكره عن المناخ السائد في الحرم المكي أنه مأوى الرائح والغادي، وأنه في رحابه وحول الكعبة حصل له نقاش مع بعض فقهاء الدعوة السلفية في حجته الثانية، وقد وصفهم بالعلماء الأكابر، وقال عنهم "أنه دخل معهم في مناظرة ومناقشة واعتراضات وتساؤلات وأجوبة فائقات ودلائل قاطعات وأحاديث مروية من أكابر الأئمة من الأمهات وخاصة في قصر الصلاة" (الناصري، ١٩٩٠، ص ١١٩).

٢. أما ما يتعلق **بالبعد الروحي** الذي يبرز التواصل الحضاري والترابط الديني بين الجزائر والحجاز، فقد عبرت عنه الرحلات الحجية الجزائرية بعمق وأبرزته العديد من القصائد الشعرية بلغة فصيحة أو لسان عامي وعبارات دارجة، وهذا ما حاولت العديد من الدراسات تجاوزه بفعل الخصوصية القطرية، مع أنه عامل مؤسس لوحدة الفضاء الإسلامي، خاصة مع الجزائر لبعدها الجغرافي ومواجهتها آنذاك للضغوط الأوربية بفعل الصراع الأوربي العثماني.

وأول ما يُلاحظ في هذا الجانب هو انبهار أصحاب الرحلات أو التقاييد بمشاهد الحرمين الشريفين وتأثرهم بذكريات مواطن الوحي ومآثر الرسول صلى الله عليه وسلّم، ففضل العديد منهم التعبير عن إحساسهم الروحي نثرا ونظما، مظهرين تعلقهم بالرسول صلى الله عليه وسلّم. فالمقري عبر عن شعوره عندما قصد مكة طلبا للعمرة وأداء الحج بأبيات منها (المقري، ٢٠٠٤ أ، ص٤١):

هذي أباطحُ مكة حولي وما ** جمعت مشاعرها من الحُرُمات
أدعو بـــها لبيك تلبية امـــرئٍ ** يرجو الخلاص بها من الأزمـات

كما نظم المقري العديد من القصائد في المديح النبوي، منها هذه الأبيات (المقري، ٢٠٠٤ ب، ص٥٦):

أحمد المختار فـي العليا من ** خـــير آباء وأسـمى جـــدود
يا رسول الله يا من جاءنا عنه ** فـــي التنزيل أوفوا بالـــعقـــود
اشفع اشفع للفقير المقري يوم ** جمع الناس من بطن اللحود
فهو ذو ذنبٍ ولكن يرتجي من ** كريم عفوه يوم الوفـــود
ما ســـرى ركـــــبٌ إلـى طـــيبة أو ** غنّت الورقاء في روض الصعود
أو أتيحَ الختم بالـحسنى لـمن ** كمل الله له كل القصـــــود

وماثله في ذلك الشاعر الأديب أحمد بن عمار الجزائري الذي تضمّنت رحلته الحجازية أشعارا في المديح النبوي عُرفت بالمولديات، تنم عن عمق إحساسه وصدق عاطفته وتشوقه إلى مواطن الوحي بالحجاز، منها قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلّم، جاء فيها (ابن عمار، ١٩٠٣، ص٣١):

الركب نحو الحبيب قد ساروا ** يود شوقا إليه لو طـاروا
قلبي المُعَنَّى الكئيب قد حـنـا ** إلى التلاقي وطال ما أنا

وفي مولدية أخرى ضمّنها رحلته الحجازية، تغنى بالربوع التي عاش فيها الرسول صلى الله عليه وسلّم، بدأها على عادة الشعراء بالنسيب، جاء فيها (ابن عمار، ١٩٠٣، ص١٠):

دعاني الـحبُّ نحوك أم عـــمرو ** فطرت إليك خفاق الجنـاح
ولو أستطيع من طرب وشـوق ** ركبت إليك أجنحة الرياح

وفي موشحة أخرى خطها بمناسبة المولد النبوي (سنة ١١٦٦ هـ/ ١٧٥٣ م)، بعد عقد العزم على أداء فريضة الحج، أبدى اشتياقه إلى ربوع الحجاز وما حولها، ومما جاء فيها (ابن عمار، ١٩٠٣، ص٤٥):

أَ نسيمًا بات من زهر الـربا ** يقتفـــي الركبان
احـملْنَّ منِّي سلاما طيبـا ** لأهـــيل البـان
إقرأن مـنِّي ســلاما عـبِقًا ** إن بدت نجــد
أن لـي قـلبا إليها شيقا ** شفه وجـــد

وقد جاراه في ذلك معاصره الشيخ أبو العباس أحمد المنقلاتي في موشحته "نلت المراح"، التي استهلها بالتطلع إلى مواطن النبوة بالحجاز ، بهذه الأبيات (ابن عمار، ١٩٠٣، ص٢٨):

بالله حادي القـطار ** قف لي بتلك الديار ** واقرأ سلاما
سلم على عرب نجد ** واذكر صبابة وجدي ** كيف يلام
من بادرته الدموع ** شوقا لتـلك الربـوع ** مع المقام

أما الشعر الملحون فكان أكثر التصاقا بضمير العامة وأكثر أثرا في حشد النفوس المتعلقة بمواطن الوحي والإشادة بمآثر الرسول صلى الله عليه وسلّم وصحبه. وقد نظم رحلاته شعرا ملحونا أو عاميا كثير من الرحالة، اشتهر منهم كل من أبي عثمان سعيد المنداسي، ومحمد بن مسايب التلمساني، وأحمد بن التريكي التلمساني.

وقد وضع أبو عثمان سعيد المنداسي التلمساني (ت. ١٠٨٨ هـ/ ١٦٧٧ م)[1] رحلته الحجية في شكل قصيدة عُرفت بالعقيقة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلّم، وتوقف فيها عند الأماكن التي ارتبطت بحياة الرسول صلى الله عليه وسلّم، نظمها في بلاط السلطان

(١) أبو عثمان سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي. ولد بتلمسان وعاش فيها في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. تعلم فيها الفقه واللغة والأدب وعُرف بنظم الشعر. انتقل إلى المغرب الأقصى واستقر بسجلماسة، وكانت له مكانة في البلاط العلوي.

العلوي مولاي إسماعيل بالمغرب مستلهما فيه سفره إلى الحجاز، بلغت أبياتها ٣٠٢ بيتا، وكانت لها شهرة واسعة وتناقلها الرواة، ووضعت لها شروح عديدة منها سبعة شروح خصها بها أبو راس الناصري (الناصري، ٢٠٠٧، ص١٨٩)،[1] وقد بدأها المنداسي على عادة شعراء البلاط بالتغزل وذكر الأماكن القريبة من مكة والمدينة (المنداسي، ١٩٦٨، ص ٥ – ٤٣):

كيف يُنسى قلبي عرب العقيق والبان ** والعقيق يا قلايده انهلـــوا

بعدها ذكر كرامات الرسول صلى الله عليه وسلّم وأحداث سيرته العطرة بأبيات مؤثرة منها (المنداسي، ١٩٦٨، ص٢٢):

حط الرحال يا حادي العيس كن مهمام ** ذي منازل من قال الله عليه صلوا

هـذي هي الديار يا بـــــاكي الأرســام ** عرّات يد النسيب للمدح خطـــاها

هذه الروضة الـــمشرفة دفـــــعت الأنام ** هذه طيبة ضحك مع العين وطـــاها

هذي عين الوجود والرحمة طه

أما محمد بن مسايب التلمساني[2] فخاطب في رحلته الحجية حمامة (الورشان) تصور أنها تطير إلى محط أشواقه، واستذكر في شعره الموجه لها مميزات مراحل الرحلة وصفات مواطن الوحي، مثل قوله في مقام الرسول صلى الله عليه وسلّم (Bencheneb, 1900, p 282):

قـــــــل له يا طـــيب الأنفـــاس ** جست لرسول نَدِّ القرطاس

في الحشر توقف فيه الناس ** بغيتك تقول أنا لهـا

أما رفيق دربه وصنوه في الشعر الشعبي أحمد بن التريكي[3] فقد ذكر أنه نظم رحلته الحجية شعرا (١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م) على غرار ابن مسايب، ووصف فيها مكة ومشاهد

(١) العقيقة في مدح الرسول ومآثر الحجاز، تناقلها رواة الشعر الشعبي، ووُضعت لها شروح عديدة منها شرح ابن سحنون الراشدي، وخصّها أبو راس الناصري بسبعة شروح.

(٢) محمد بن مسايب التلمساني: شاعر جزائري من أصول أندلسية. وُلد بمدينة تلمسان، عُرف بأشعاره في الغزل والرثاء والمديح الصوفي. توفي بتلمسان على الأرجح بعد ١١٨٢ هـ/ ١٧٦٨ م.

(٣) أحمد بن التريكي: وُلد بتلمسان أواسط القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي في أسرة كرغلية لأب تركي). اشتهر بكتابة الشعر الملحون. نُفي من موطنه تلمسان، وتوفي بوجدة.

الحجاز ومحطات الطريق (العقبة، مغاير شعيب، أكرا، وادي النور، رابغ، المدينة، جبل عرفات) (Hamidou,1936, p1030-1031)، مظهرا تشوقه ومعبرا عن عواطفه الجيّاشة، ورغم ضياع الرحلة فإن ما بقي من شعره العامي يعطي لنا فكرة عن سياقها وموضوعها وتعلقه بالرسول صلى الله عليه وسلّم (الغوتي، ١٩٠٤، ص٧٥؛ المنداسي، ١٩٦٨، ص٢٢):

شـعـلـت نـيـرنا اكـبادي ** وعييت ما نبكي ولا نفعني نـواح
طـابوا بالدمـع أثـمـادي ** لو صبت نزور مقام راحتي نستراح
صـلى الله عـلى الـهـادي ** مولى الكعبة المشرفة مليح الإصلاح
لو صـبت نـزور مقام ** بـدر التـمـام
يتفـاجـأ كل غـمـام ** يـتـجـلاو الـهـمـوم

ويُستخلص من البعد الروحي الذي يمكن تلمسه في الرحلات الحجية الجزائرية شيوع التصوف وانتشار الاعتقادات والعادات الساذجة في الأوساط الشعبية، والتي هي انعكاس لحالة الانغلاق والجهل و تعبر عن المستوى المعرفي البسيط الذي كان يطبع ذهنية الانحطاط السائدة في المجتمعات المحلية آنذاك.

ومع أن التصوف يمكن اعتباره سلوك شخصي رافض لضغوط الحياة ومنسحب من واقعها، وأن بعض الاعتقادات الشعبية تنافي روح الدين ومتطلبات العقل وتعتبر تصرفات منافية لجوهر الشريعة، إلا أنها تظل ظواهر تاريخية لا يمكن تجاوزها أو تجاهلها لارتباطها بالذاكرة الشعبية وحمية الشعور الديني والتشوق إلى كل ما يعبر عن مآثر الرسول صلى الله عليه وسلّم والصحابة رضوان الله عليهم من خلال فكرة قدسية الأماكن التي شهدت نزول الوحي وعرفت أحداث النبوة، وهذا ما يجعل التبرك بقبور الأولياء والصالحين وزيارة أضرحتهم وتقديم النذر للقائمين عليها، من منظور التحليل التاريخي، سلوكا اجتماعيا أكثر منه تراثا مرتبطا بالشعائر الدينية، وإن كان فيها إخلال بصفاء العقيدة الإسلامية لكونها مخالفات وممارسات شركية حاربتها الحركات الإصلاحية الإسلامية.

على أن أهمية الاعتقادات الشعبية في الكرامات تكمن في كونها تقدم صورة روحانية تعبر عن وجدانية الذاكرة الحضارية للموروث الشعبي، فضلا عن كونها تكرس سلوك الورع والصدق ومحاولة الارتباط بموروث الذاكرة، ولم تستثن هذه الاعتقادات الخاصة، مع ما يُلاحظ من اختلاف بين اعتقادات العامة التي ترى في التبرك والنذر مطلبا واجبا، وبين نظرة الخاصة التي تسلم بهذا الأمر مع بعض التحفظات. فالرحالة الورثلاني، رغم تصديقه لكل ما يسمعه وتسليمه بتلك الاعتقادات الساذجة بفعل الورع ومجاراة الرأي السائد الذي يجعله يثبت ما تعتقده العامة (قوقام، ١٩٧٦، ص٣٢)، إلا أنه يحاول إيجاد تبرير وتفسير لها، فهو على سبيل المثال يُسلم بأن الأنوار التي ذكر أنها شوهدت في الخليص من جهة المدينة هي أنوار رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ويضيف أنها لا يمكن أن تكون برقا، لأن البروق في نظره تغير مكانها، ولأن الليلة كانت صحوا (الورثلاني، ١٩٠٨، ص ٣٨١ – ٣٨٢). كما تهيأ له أيضا أنه شاهد أنوار الرسول صلى الله عليه وسلّم من المدينة وهو ببدر، ونفى أن تكون تلك الأنوار بروقا (الورثلاني، ١٩٠٨، ص ٣٤٦)، كما ذكر أنه تهيأ له عند بلوغه بدر سماع صوت الطبل الذي وقع به النصر للرسول صلى الله عليه وسلّم، وعلّل الأمر بأن هذا الصوت لا يسمعه إلى من خصّه الله بتلك المزية العظمى، معتبرا أن ذلك من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلّم الباقية (الورثلاني، ١٩٠٨، ص ٣٦٥).

الخاتمة:

يمكن إجمال استنتاجات البحث في النقاط التالية:

١. إن الرحلات الحجية الجزائرية توفر مصدرا مهما للتعرف على أوضاع الحجاز، فهي تكمل مصنفات المسالك والجغرافية الوصفية، وتشكل حلقة تواصل بين الرحلات الأخرى المشكلة لتراث الرحلة الأندلسي والمغاربي. فهي جزء مهم ضمن التراث المشترك لأدب رحلات الحج، فإن كانت لا ترقى في مجملها إلى مستوى كتب المسالك والجغرافية الإسلامية التي وضعها أمثال البكري والإدريسي والزهري وابن سعيد وابن عبد المنعم، ولم يكن لها

صدى الرحلات الحجية الرئيسية التي كتبها كل من ابن جبير وابن رُشيد والبلوي والتجيبي وابن مليح السراج والعياشي والدرعي والإسحاقي (نواب، ٢٠٠٨، ص٣٩-٩٦؛ ماكامان، ٢٠١٤، ص٥٥٢؛ سعيدوني، ٢٠١٣ ب، ص٧٠٥)، إلا أنها من حيث خصوصيتها ونوعية المعلومات التي تتضمنها والشحنة العاطفية التي تحملها والمقاربة النفسية التي تعبر عنها بالنسبة لأوضاع الحجاز ومكانة الحرمين الشريفين، تظل في نظرنا مجالا للدراسة وميدانا للبحث بهدف استكمال مصادر الحجاز في الفترة العثمانية وخاصة القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة/ السابع عشر والثامن عشر الميلاديين.

٢. رغم خصوصية الرحلات الحجية الجزائرية وأهمية مضمونها المعرفي ودلالاتها الأدبية والاجتماعية والنفسية إلا أنها لم تحظ بالاهتمام اللائق بها، ولم تنل ما تستحقه من الدراسة، فنظر إليها البعض على أنها جزء من الرحلات المغاربية، واعتبرها آخرون أنها أقل شأنا من رحلات المغرب الأقصى من حيث العدد والمحتوى بسبب ضياع الكثير منها ووصول أجزاء منها فقط إلينا،كما هو الحال بالنسبة لرحلات ابن عمار وأحمد الساسي البوني وعبد الرزاق بن حمادوش وعبد القادر بن مبارك القسنطيني. ويُضاف إلى ذلك أن أغلب من اهتم بتسجيل رحلته من علماء الجزائر، فضل العيش في أقطار المشرق والمجاورة بالحرمين الشريفين مثل: يحيى الشاوي، وأحمد المقري وأحمد بن عمار، أو آثر الاكتفاء بتقييد رحلته ضمن ما صنفه من كتب الفقه والحديث وعلوم اللغة مثل أبي مهدي عيسى الثعالبي، وعبد الكريم بن احمد التواتي، وأبي راس الناصري.[١]

٣. تميّزت الرحلات الحجية الجزائرية بالاختلاف في الشكل والتباين في المحتوى والتنوع في الأسلوب، فهناك رحلات كُتبت نثرا مثل رحلة الورثلاني وأبي راس الناصري، وهناك ما زاوج بين النثر والشعر مثل رحلة المقري وابن عمار، ومنها ما وُضع نظما فصيحا كرحلة المجاجي وابن زرقة الدرقاوي، أو شعرا ملحونا دارجا في شكل رحلات منظومة كما هو حال أبي عثمان سعيد المنداسي ومحمد بن مسايب التلمساني وأحمد بن التريكي، كما أن

(١) انظر جدول الرحلات ضمن البحث.

بعض هذه الرحلات جاء في شكل تقاييد تعتمد النثر المسجوع أو المرسل مع التركيز على أحداث السيرة النبوية وموطن الوحي والشعائر الدينية، مثل رحلات محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، وعبد الكريم بن امحمّد التواتي، وأبي مهدي عيسى الثعالبي، ومنها أخيرا ما سجله ونقله الطلبة وحافظوا عليه كرحلة الورثلاني، أو تناقلوه عن طريق السماع المتواتر، مثل رحلة عاشور بن موسى القسنطيني.[1]

ورغم ما قد يؤكد على هذا التنوع وما يلاحظ أحيانا من خروج عن الشكل المعتاد والمتعارف عليه في الرحلات، إلا أن ذلك في نظرنا لا يقلل من أهميتها كإسهام غني وتراث حي وحصيلة ثقافية متنوعة من حيث الأسلوب والمضمون، تسمح للباحث بالاستقصاء والاستنتاج والتحليل والملاحظة، بما يمكنه من تقديم تصور موضوعي لمشاهد الحج ومعالم الحجاز ومؤسساته العلمية ومراحل ومنازل الطريق، من حيث أن الرحلة الحجية تعبر عن موقف حضاري وتشكل فضاءً أدبيا وروحيا يرتبط بأداء فريضة الحج وزيارة الحرمين الشريفين.

٤. يعتبر البحث المقدم محاولة لاستغلال المادة الخبرية والمضمون المعرفي ولو بشكل غير مباشر ،بهدف تلمس أوضاع الحجاز من حيث مظاهرها السياسية والإدارية والاقتصادية والثقافية والروحية، ومعالمها الجغرافية والعمرانية. وقد اعتمد في ذلك منهجا تحليليا يقوم على استقصاء المادة الخبرية وتحليلها وتركيب عناصرها بغية رسم صورة معبرة عن بعد إنساني ورؤية حضارية وإحساس روحي لرحلة الحجاج الجزائريين وتعرفهم على واقع الحجاز، وهذا ما يتطلب مستقبلا استكمال المادة الخبرية التي توفرها الرحلات الحجية الجزائرية وبذل جهد إضافي وبحث مركز للعثور على ما فُقد منها ونفض الغبار عما ظل منها في المكتبات الخاصة أو العامة بمصر والحجاز مثل الأجزاء الناقصة من رحلات ابن عمار (نحلة اللبيب)، وابن حمادوش (لسان المقال)، وأبي راس الناصري (عدتي ونحلتي في تعداد

(١) انظر جدول الرحلات ضمن البحث.

رحلتي). و لعل هذا ما دفع العالم والباحث الجزائري أبا القاسم سعد الله إلى القول بأن البحث عن الضائع منها ودرس الموجود وتقييمه واجب علمي (سعد الله، ١٩٧٩، ج٢، ص٣٤٤)، وهذا ما شعرنا به وشجعنا على المساهمة بكتابة هذا البحث ضمن هذا الجهد العلمي الضروري.

٥. كان لرحلة الحج الجزائري أثر بالغ في الحياة الثقافية والاجتماعية وخاصة الروحية، باعتبارها عامل تواصل ووسيلة تفاعل، فقد كان ركب الحج في مختلف البلاد الإسلامية وخاصة المغاربية منها شبه مدرسة متنقلة وحلقات درس ووعظ متجددة في كل المحطات والمنازل، وخاصة في رحاب الحرمين الشريفين حيث تُعقد مجالس العلم وتقام المناظرات والمناقشات وتلقى قصائد المدح ويسعى ذوو القريحة الأدبية والمعرفة الدينية لإثبات مكانتهم وكفاءتهم اللغوية ومقدرتهم الأدبية واستحقاقهم للإجازات العلمية والمنزلة الاجتماعية وجدارتهم بلقب الحاج الذي يُكسب صاحبه مكانة اجتماعية واعتبارا أدبيا في مجتمعه المحلي.

هذا ويمكن بالرجوع إلى الرحلات الحجية الجزائرية وضع جداول إحصائية تسمح برصد العلاقات الثقافية الجزائرية-الحجازية في مجال التأليف الديني والأدبي، ومسائل المناظرات والإجازات، وقضايا التأثير وانتقال الأفكار وشيوعها لدى الخاصة وبين العامة، خاصة ما يتعلق منها بالطرق الدينية و التصوف، وظاهرة الهجرة إلى الحجاز طلبا للعلم أو رغبة في المجاورة وبحثا عن الراحة النفسية.

٦. تندرج الرحلات الحجية الجزائرية ضمن التراث الثقافي والرصيد الروحي للشعب الجزائري، وتشكل من حيث تأثيرها و انعكاساتها رابطة قوية تشد المجتمع الجزائري إلى فضائه الروحي وبعده الحضاري. وذلك جانب وجب التركيز عليه في دراسة واقع الرحلات الحجية باعتباره المعبر الصادق عن عمق التواصل بين الجزائر وبلاد الحرمين الذي ظلت تختزنه الذاكرة التاريخية والمخيال الشعبي للفرد الجزائري الذي حافظ على قدسية رحلة الحج، وأعطى لها بعدا اجتماعيا وسلوكيا لا نجده في المصادر التاريخية العادية، ولا يمكن استنتاجه من الوثائق الأرشيفية.

فالأبعاد الروحية والنفسية لا يمكن مقاربتها إلا من خلال دراسة الرحلة الحجية عامة والجزائرية منها خاصة التي تعكس موروثا شعبيا وتصورا دينيا، ويمكن من خلالها استنتاج معطيات تتعلق بالأحوال الشخصية كالزواج و واقع المرأة المسلمة ومسألة الميراث وظاهرة قطع الميراث والسلوكات المختلفة من انضباط وحشمة وتبرج ، ومسألة الوعظ والإرشاد و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر والموقف من الظواهر السلبية للعادات والتقاليد المنحرفة عن روح الإسلام، وكيفية التعامل من قضايا طارئة كشرب القهوة وتدخين التبغ وسماع الموسيقى والتي كانت مجال نقاش وموضوعا لإبداء الرأي في تلك الفترة التاريخية (عزي، ٢٠١١، ص٨٠ – ٨١؛ سعد الله، ج٢، ص ٣٩٨).

٧. إن الرحلات الحجية الجزائرية باعتبارها مصدرا مهما لواقع الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة/ السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، تتطلب في بحوث مستقبلية مقارنة محتواها المعرفي بمضمون باقي الرحلات الأخرى بهدف استكمال صورة الحجاز في مختلف أوجه الحياة، خاصة فيما يتعلق بخط سير الركب ومحطاته والمراكز العمرانية المنتشرة على طوله والحالة الاقتصادية والاجتماعية والوضع الصحي والسياسي السائد بالحجاز، إذ يلاحظ بالرجوع إلى الرحلات المغاربية الأخرى وجود اختلاف بينها في تحديد خط سير الركب ومحطاته وفي وصف المراكز العمرانية عبره، وهذا ما يطرح التساؤل عن إمكانية اعتماد دراسة تحليلية مقارنة قائمة على رصد التطورات في المكان والزمان بالاعتماد على محتوى الرحلات الحجية، وبملاحظة ما جد على أوضاع الحجاز من تحول بفعل شروط المكان وظروف الزمان، وبذلك يتعرف الباحث بشكل موضوعي على واقع الحياة العلمية والاجتماعية والثقافية وعلى ما طرأ على خط سير الحجاج من تغير في مساره وفي محطاته.

وفي ختام البحث نؤكد على ما سبق ذكره من أن استغلال المضمون العلمي والدلالات الأدبية والنفسية للرحلات الحجية الجزائرية في بعدها الزمني ومضمونها الاجتماعي، يتطلب معاجلة متزنة تتجنب الأحكام والاستنتاجات المبالغ فيها والمتسرعة أو إهمال العادات والتقاليد كما هي في واقع الحياة في مكان وزمان محددين وليس كما تتصورها

الرؤى الإصلاحية التي تعالج قضايا الماضي انطلاقا من اعتبارات الحاضر وطموحاته، إذ يجب أن لا ننسى بأن الرحلات الحجية تختزن مضامين أنثروبولوجية ودلالات اجتماعية هي نتيجة احتكاك ثقافي وتعامل اجتماعي وضرورات اقتصادية وتواصل روحي، مما يجعلها بحق نتاجا تراثيا متميزا في الفضاء الشاسع للذاكرة التاريخية للمجتمعات العربية الإسلامية.

المصادر والمراجع:

ابن حمادوش الجزائري، عبد الرزاق. (١٩٨٢). *لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال*. تقديم وتحقيق وتعليق: أبي القاسم سعد الله. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

ابن سودة، عبد السلام. (١٩٦٠). *دليل مؤرخ المغرب الأقصى*. الدار البيضاء: دار الكتاب. ٢ ج.

ابن عمار، أبو العباس أحمد. (١٩٠٣). *نحلة اللبيب في الرحلة إلى الحبيب* (نبذة عن الرحلة: المقدمة). تحقيق: محمد بن أبي شنب. الجزائر: مطبعة فونتانا.

ابن مسايب، محمد. (١٩٨٩). *الديوان*. إعداد وتقديم: الحفناوي أمقران السحنوني وأسماء سيفاوي. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

الأرشيف الوطني الجزائري، الوثائق العثمانية، ميكروفيلم رقم MI 15، شريط (bobine) ٥٣ / ٤٣٣ (الوثيقة بإمضاء حسن باشا والي محروسة جزائر غرب).

أنيس، محمد وحراز السيد رجب. (١٩٦٧). *الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر*. القاهرة: مكتبة النهضة العربية.

بوسعيد، أحمد بن محمد. (٢٠٢٢). *ركب الحج من الجزائر في العهد العثماني (١٥١٨ – ١٨٣٠م)*. الجزائر، دار الكتاب العربي.

الحفناوي،أبو القاسم محمد.(١٩٨٢).*تعريف الخلف برجال السلف*.بيروت: مؤسسة الرسالة.٢ج.

الدرعي، أحمد بن محمد بن ناصر. (١٩٠٢). *رحلة شيخ الطريقة وقعدة الشريعة والحقيقة قدوة الأنام وعلم الأعلام شيخ الإسلام ومقرب السالكين العظام أبو العباس سيد أحمد بن محمد ناصر الدرعي الجعفري الزينبي*. فاس: المطبعة الفاسية.

ريزفان، يغيم. (١٩٩٣). *الحج قبل مائة سنة: الرحلة السرية للضابط الروسي عبد العزيز دولتشين السرية إلى مكة ١٨٩٨ – ١٨٩٩*، ط. ٢. بيروت: دار التقريب بين المذاهب.

الزهار، أحمد شريف، نقيب أشراف الجزائر. (١٩٧٤). *مذكرات*. تحقيق ونشر: أحمد توفيق المدني. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر.

الساسي البوني، أبو القاسم أحمد بن بلقاسم. (١٩١٣). *الدرّة المكنونة (أو المصونة) في علماء بونة (الألفية الصغرى)*. نشر: محمد بن أبي شنب. الجزائر: التقويم الجزائري.

سعد الله، أبو القاسم. (١٩٧٩). *الرحلات الجزائرية الحجازية خلال العهد العثماني*، ضمن كتاب *مصادر تاريخ الجزيرة العربية*. نشر: جامعة الرياض. الرياض: مطابع حامد. ج. ٢.

سعد الله، أبو القاسم. (١٩٩٨). *تاريخ الجزائر الثقافي*. بيروت : دار الغرب الإسلامي. ج. ٢.

سعد الله، أبو القاسم. (٢٠٠٩). *على خطى المسلمين (حراك في التناقض)*. الجزائر: عالم المعرفة.

سعيدوني، ناصر الدين. (٢٠٠٨). *الإسكندرية محطة الحجاج المغاربة أثناء العهد العثماني*. مجلة الخليج للتاريخ والآثار، عدد ٤، أبريل ٢٠٠٨ / ربيع الأول ١٤٢٩ ه.

سعيدوني، ناصر الدين. (٢٠١٣ أ). *دور مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين في علاقات الجزائر بالبقاع المقدسة*، ضمن كتاب: *الوقف في الجزائر أثناء العهد العثماني (ق. ١٧ – ١٩ م)*. الجزائر: دار البصائر الجديدة.

سعيدوني، ناصر الدين. (٢٠١٣ ب). *من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين*. الجزائر: دار البصائر الجديدة.

سعيدوني، ناصر الدين. (٢٠١٦). *كشاف بالإسهام المغاربي في مجال المعارف الإنسانية*. الجزائر: دار البصائر الجديدة. ٢ج.

سليم، محسن محمد حسن. (١٩٩٣). *دراسات في تاريخ شبه الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر للهجرة*. القاهرة: دار الكتاب العربي.

شترة، خير الدين. (٢٠١٥). *رحلات جزائرية (رحلة الشيخ عبد الرحمن بن إدريس التينلاني)*. بوسعادة (الجزائر): دار كردادة.

الشرقاوي، محمد عبد المنعم والصياد، محمد محمود. (١٩٥٢). *هذا العالم*، ط. ٢. القاهرة: دار المعارف.

الصديق، حاج أحمد. (د.ت). *التاريخ الثقافي لإقليم توات*. أدرار (الجزائر): مديرية الثقافة.

عبد الرحيم، عبد الرحمن عبد الرحيم. (١٩٧٩). *الدولة السعودية الأولى (١١٥٨ – ١٢٣٣ هـ/ ١٧٥٤ – ١٨١٨ م)*، ط. ٣. القاهرة: دار الكتاب الجامعي.

العبدري الحاحي، أبو عبد الله محمد. (١٩٦٨). *ما سما إليه الناظر المطرق في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق (الرحلة المغربية)*. تحقيق ونشر محمد الفاسي، الرباط: جامعة محمد الخامس.

عزي، عبد الرحمن. (٢٠١١). *التواصل القيمي في الرحلة الورثلانية*. الجزائر: مؤسسة كنوز الحكمة.

عمالك، أحمد. (٢٠٠٠). *ركب الحج الناصري زاوية متنقلة*. مجلة أمل، عدد ١٩ – ٢ – ٢٠٠٠.

عنان، محمد عبد الله. (١٩٧٠). *تراجم إسلامية وأندلسية*، ط. ٢. القاهرة: مكتبة الخانجي.

العياشي، أبو سالم عبد الله بن محمد. (١٨٩٨). *ماء الموائد المعروف برحلة العياشي*. طبعة فاس الحجرية، ١٣٠٦ هـ/ ١٨٩٨ م.

غرابية، عبد الكريم. (١٩٨٤). *تاريخ العرب الحديث*. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع.

غنيم، عبد الله يوسف. (٢٠٠٥). *أشكال سطح الأرض في شبه الجزيرة العربية في المصادر العربية القديمة*. الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي والجمعية الجغرافية الكويتية.

الغوتي، أبو علي. (١٩٠٤). *كشف السماع عن آلات السماع*. الجزائر: مطبعة جوردان.

قوقام، يوسف. (١٩٧٦). *الشيخ الحسين الورثلاني من خلال كتاب الرحلة*. مجلة الثقافة، الجزائر، عدد ٣٥/ ١٩٧٦.

الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير. (١٩٨٢). *فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات*. تحقيق: إحسان عباس، ط. ٢. بيروت: دار الغرب الإسلامي. ج. ١.

كحالة، عمر رضا. (١٩٢٥). *جغرافية شبه جزيرة العرب*. دمشق: مطبعة الترقي.

الكنتي، محمد بن المختار. (د.ت). *الطرائف والتلائد (مخطوط)*. خزانة أدغاغ، أدرار (الجزائر).

الماجري، أحمد بن إبراهيم. (٢٠١٣). *المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح*. تحقيق عبد السلام السعيدي. الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية.

ماكامان، محمد. (٢٠١٤). *الرحلات المغربية (ق. ٩ – ١٢ هـ)*. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. الرباط: جامعة محمد الخامس، مطبعة الأمنية.

المقري، شهاب الدين أبو العباس أحمد. (٢٠٠٤ أ). *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر. ج. ١.

المقري، شهاب الدين أبو العباس أحمد. (٢٠٠٤ ب). *رحلة المقري إلى المغرب والمشرق*. تحقيق: محمد بن معمر. وهران: منشورات مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا بجامعة وهران، مكتبة الرشاد.

المنداسي، أبو عثمان سعيد. (١٩٦٨). *الديوان*. تقديم وتحقيق: محمد بكوشة. الجزائر: المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع.

المنوني، محمد. (١٩٨٩). *الجزيرة العربية في الجغرافيات والرحلات المغربية وما إليها*، ضمن *أعمال ندوة مصادر تاريخ الجزيرة العربية*. الرياض: مطابع حامد. الكتاب الأول.

الناصري المعسكري، محمد أبو راس. (١٩٨٦). *فتح الإله ومنّتِه في التحدث بفضل ربي ونعمته* (حياة أبي راس الذاتية والعلمية). تحقيق وضبط وتعليق: محمد بن عبد الكريم الجزائري. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

الناصري المعسكري، محمد أبو راس. (٢٠٠٤). *عجائب الأسفار ولطائف الأخبار*. تحقيق: محمد غالم. وهران، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية. ج. ١.

الناصري المعسكري، محمد أبو راس. (٢٠٠٧). *الدرّة الأنيقة في شرح العقيقة*. تحقيق وتقديم: أحمد أمين دلّاي. وهران: منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية.

نواب، عواطف. (٢٠٠٨). *كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدرا من مصادر تاريخ الحجاز (ق. ١١ – ١٢ هـ)*. الرياض: دارة الملك عبد العزيز.

هلايلي، حنيفي. (٢٠٠٨). *الجزائريون والرحلة إلى الحجاز على ضوء رحلتي الورثلاني وأبو راس الناصري*، ضمن كتاب *أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني*. عين مليلة (الجزائر): دار الهدى.

الورثلاني، الحسين بن محمد السعيد. (١٩٠٨). *نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورثلانية*. تحقيق ونشر: محمد بن أبي شنب. الجزائر: مطبعة بيير فونتانا.

Bencheneb, Mohammed. (1900). « Itinéraire de Tlemcen à la Mekke par Ben-Messaib (XVIIIè siècle) », *Revue africaine*, 44ème année, n° 238-239, 1900.

Faure Biguet, G. (1899). « Notice sur le Chick Abou Ras En-Nassiri ». *Journal asiatique*, 9ème série, 1899.

Hadj-Sadok, Mohammed. (1951). « A travers la Berbérie orientale du XVIIIème siècle : avec le voyageur Al-Wartilani ». *Revue africaine*, n° 95 / 1951.

Hamidou, Abdelhamid. (1936). « Aperçu sur la poésie vulgaire de Tlemcen : Les deux poètes populaires de Tlemcen Ibn Amsaib et Ibn Triki ». *Actes du 2ème congrès de la Fédération des sociétés savantes de l'Afrique du Nord (F.S.S.A.N.)*, Tlemcen, 14-17 avril 1936. Alger : Société historique d'Algérie, 1936, T. II.

Rocqueville, Sieur de. (1775). « Relation des mœurs et du gouvernement des Turcs d'Alger ». Paris : Oliviers.

Saidouni, Nacereddine. (2007). *Les liens de l'Algérie ottomane avec les lieux saints de l'Islam, (in Le waqf en Algérie à l'époque ottomane (XIè – XIIIè siècles de l'hégire*. Kuwait : Fondation publique des Awqaf, 2007.

Vallière, Consul C. Ph. (1781). *Mémoire*, pub. par L. Chaillou sous le titre : *L'Algérie en 1781*. Toulon : Chez l'auteur, s.d.

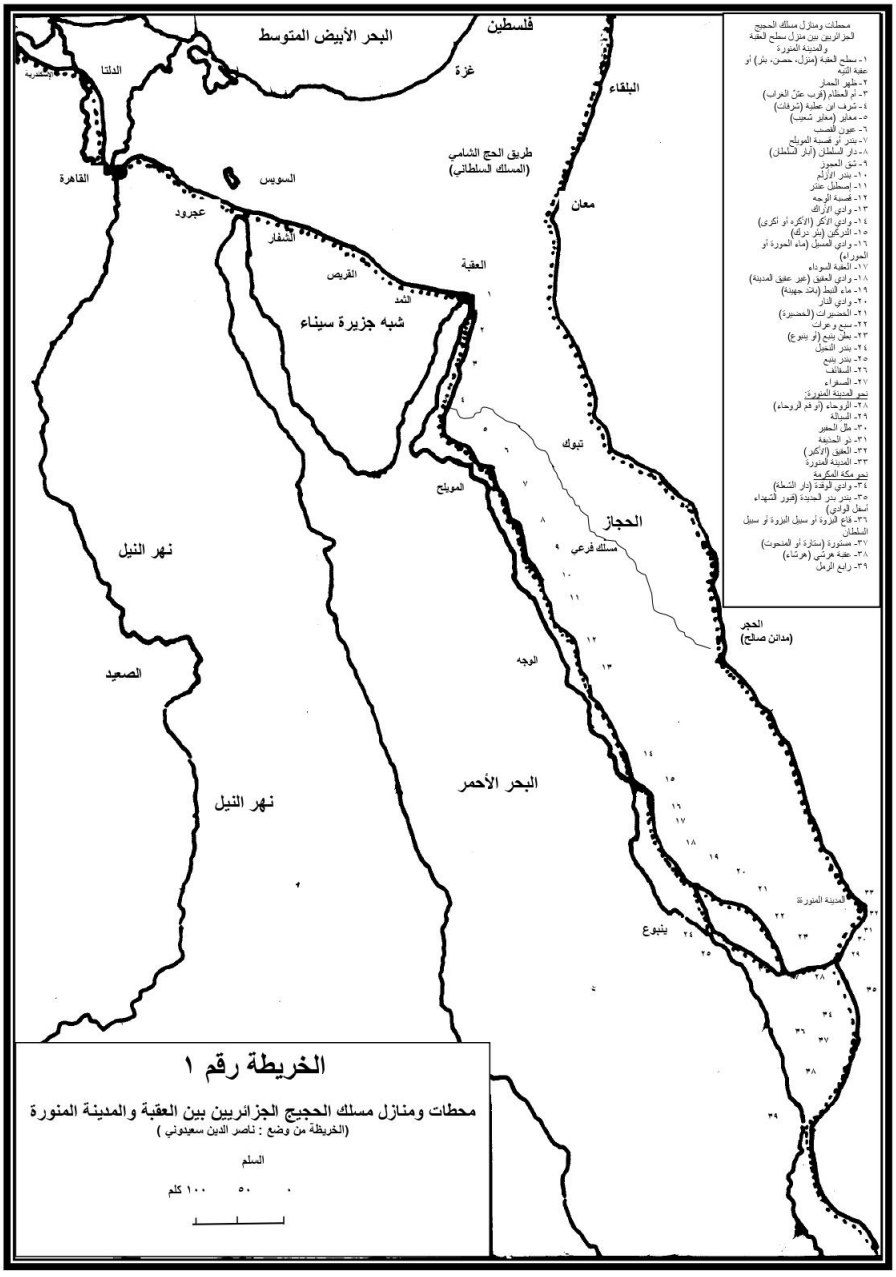
البحر الأبيض المتوسط
فلسطين
غزة
البلقاء
الإسكندرية
الدلتا
القاهرة
السويس
طريق الحج الشامي
(المسلك السلطاني)
معان
عجرود
الشفار
القريص
النمد
العقبة
شبه جزيرة سيناء
تبوك
الحجاز
الحجر
(مدائن صالح)
الوجه
نهر النيل
الصعيد
البحر الأحمر
المدينة المنورة
ينبوع
محطات ومنازل مسالك الحجيج
الجزائريين بين منزل سطح العقبة
والمدينة المنورة
١- سطح العقبة (منزل، حصن، بئر) أو
عقبة الثنية
٢- مطوي الحمار
٣- أم العظام (قرب عتاّل الغراب)
٤- ثرف ابن عطية (شرفات)
٥- معابر (معابر شعيب)
٦- عيون القصب
٧- بئر أو قصبة المويلح
٨- دار السلطان (آبار السلطان)
٩- شق العمواز
١٠- بئر الأزلم
١١- إصطفل عنتر
١٢- قصبة الوجه
١٣- وادي الأزلام
١٤- وادي الأكر (الأكراء أو أكرى)
١٥- التركمان (بئر تركمان)
١٦- وادي الصفيل (ماء العمورة أو
العمورا)
١٧- الحفيرة السوداء
١٨- وادي الحفير (غير عفيق المدينة)
١٩- ماء النمط (بادئ جهينة)
٢٠- وادي النار
٢١- الحصيرات (الحصيرة)
٢٢- سميع وعرات
٢٣- بطن ينبع (أو ينبوع)
٢٤- بئر النخيل
٢٥- بئر ينبع
٢٦- السلالف
٢٧- الصفراء
يجور المدينة المنورة:
٢٨- الروحاء (أو ذو الروحاء)
٢٩- السقيا
٣٠- ملل الحفير
٣١- ذو الحليفة
٣٢- العقيق (الأكبر)
٣٣- المدينة المنورة
يجور مكة المكرمة
٣٤- وادي الوقدة (دار الشطاة)
٣٥- بئر بدر الجديدة (قبور الشهداء
أسفل الوادي)
٣٦- قاع البزوة أو سبيل البزوة أو سبيل
السلطان
٣٧- صفورية (منارة أو للمحدث)
٣٨- عقبة هرشي (هرشاء)
٣٩- رابع الرمل
مسلك فرعي
الخريطة رقم ١
محطات ومنازل مسلك الحجيج الجزائريين بين العقبة والمدينة المنورة
(الخريطة من وضع : ناصر الدين سعيدوني)
السلم
٠ ٥٠ ١٠٠ كلم

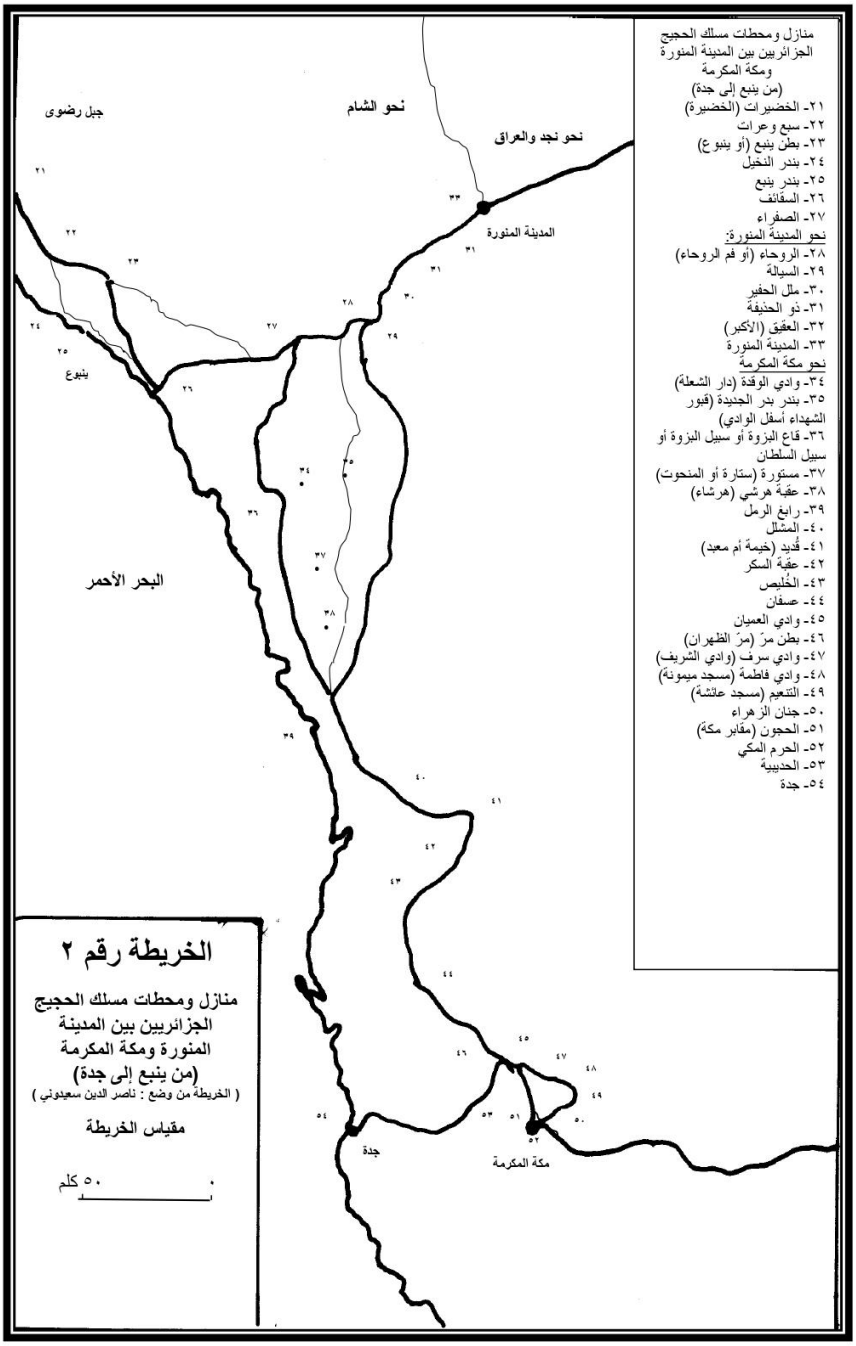
منازل ومحطات مسالك الحجيج الجزائريين بين المدينة المنورة ومكة المكرمة
(من ينبع إلى جدة)
٢١- الخضيرات (الخضيرة)
٢٢- سبع وعرات
٢٣- بطن ينبع (أو ينبوع)
٢٤- بندر النخيل
٢٥- بندر ينبع
٢٦- السقّائف
٢٧- الصفراء
نحو المدينة المنورة:
٢٨- الروحاء (أو فم الروحاء)
٢٩- السيالة
٣٠- ملل الحفير
٣١- ذو الحنيفة
٣٢- العقيق (الأكبر)
٣٣- المدينة المنورة
نحو مكة المكرمة
٣٤- وادي الوقدة (دار الشعلة)
٣٥- بندر بدر الجديدة (قبور الشهداء أسفل الوادي)
٣٦- قاع البزوة أو سبيل البزوة أو سبيل السلطان
٣٧- مستورة (ستارة أو المنحوت)
٣٨- عقبة هرشي (هرشاء)
٣٩- رابغ الرمل
٤٠- المشلل
٤١- قُديد (خيمة أم معبد)
٤٢- عقبة السكر
٤٣- الخُليص
٤٤- عسفان
٤٥- وادي العميان
٤٦- بطن مرّ (مرّ الظهران)
٤٧- وادي سرف (وادي الشريف)
٤٨- وادي فاطمة (مسجد ميمونة)
٤٩- التنعيم (مسجد عائشة)
٥٠- جنان الزهراء
٥١- الحجون (مقابر مكة)
٥٢- الحرم المكي
٥٣- الحديبية
٥٤- جدة
نحو الشام
نحو نجد والعراق
جبل رضوى
المدينة المنورة
ينبوع
البحر الأحمر
جدة
مكة المكرمة
الخريطة رقم ٢
منازل ومحطات مسلك الحجيج الجزائريين بين المدينة المنورة ومكة المكرمة
(من ينبع إلى جدة)
(الخريطة من وضع : ناصر الدين سعيدوني)
مقياس الخريطة
٥٠ كلم

قائمة بمحطات ومنازل مسلك الحجاج الجزائريين من منزل سطح العقبة إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة محددة بالأرقام المثبتة في الخريطتين رقم (١) ورقم (٢)

١- سطح العقبة (منزل، حصن، بئر) أو عقبة التيه

٢- ظهر الحمار

٣- أم العظام (قرب عشّ الغراب)

٤- شرف ابن عطية (شرفات)

٥- مغاير (مغاير شعيب)

٦- عيون القصب

٧- بندر أو قصبة المويلح

٨- دار السلطان (آبار السلطان)

٩- شق العجوز

١٠- بندر الأزلم

١١- إصطبل عنتر

١٢- قصبة الوجه

١٣- وادي الأراك

١٤- وادي الأكر (الأكره أو أكرى)

١٥- الدركين (بئر درك)

١٦- وادي المسيل (ماء الحورة أو الحوراء)

١٧- العقبة السوداء

١٨- وادي العقيق (غير عقيق المدينة)

١٩- ماء النبط (بلاد جهينة)

٢٠- وادي النار

٢١- الخضيرات (الخضيرة)

٢٢- سبع وعرات

٢٣- بطن ينبع (أو ينبوع)

٢٤- بندر النخيل

٢٥- بندر ينبع

٢٦- السقائف

٢٧- الصفراء

نحو المدينة المنورة:

٢٨- الروحاء (أو فم الروحاء)

٢٩- السيالة

٣٠- ملل الحفير

٣١- ذو الحذيفة

٣٢- العقيق (الأكبر)

٣٣- المدينة المنورة

نحو مكة المكرمة

٣٤- وادي الوقدة (دار الشعلة)

٣٥- بندر بدر الجديدة (قبور الشهداء أسفل الوادي)

٣٦- قاع البزوة أو سبيل البزوة أو سبيل السلطان

٣٧- مستورة (ستارة أو المنحوت)

٣٨- عقبة هرشي (هرشاء)

٣٩- رابغ الرمل

٤٠- المشلل

٤١- قُديد (خيمة أم معبد)

٤٢- عقبة السكر

٤٣- الخُليص

٤٤- عسفان

٤٥- وادي العميان

٤٦- بطن مرّ (مرّ الظهران)

٤٧- وادي سرف (وادي الشريف)

٤٨- وادي فاطمة (مسجد ميمونة)

٤٩- التنعيم (مسجد عائشة)

٥٠- جنان الزهراء

٥١- الحجون (مقابر مكة)

٥٢- الحرم المكي

٥٣- الحديبية

٥٤- جدة